



تأملات في 32 قصة من قصص



علي حسن العبيدلي





فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

تأمّلات في 32 قصة
من قصص القرآن الكريم

العبد الفقير إلى رحمة الله
علي حسن صالح العبيدلي

2021

kalemat





المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم ويسَّره للذِّكْرِ، وجعل فيه الرحمة والشفاء من كل ضَرَر، والصلاة والسلام على خير البشر، أما بعد:

إن الله تبارك وتعالى فَضَّلَ أمة الإسلام على غيرها من الأمم، فقال عز وجل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس». وأرسل إليها خير الرسل محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه أفضل الكتب (القرآن الكريم)، وجعله معجزة خالدة إلى قيام الساعة، تتفيأ الأمة تحت ظلال تعليماته، وتنهل من مواعظه وأحكامه، وتستنير بقصصه وأمثاله، وتستهدي بسوره وآياته، فهذا القرآن ضياء يُبَدِّدُ ظلام الشرك والجهل والتخلف، وطوق نجاة يحفظ المتمسكَ به من أمواج الفتن المتلاطمة، ومنهج حياة يهتدي به المؤمن إلى الصراط المستقيم، ومفتاح لباب السعادة التي ينشدها الإنسان في دنياه وآخرته.

القرآن الكريم رسالة الله سبحانه وتعالى إلى العالمين، فيه تبيان للعقيدة السليمة، وتوضيح للأحكام والأوامر والنواهي التي يجب على الإنسان أن يلتزم بها، ويجمع بين دفتيه كنوزًا من المواعظ والعِبَرِ والدُّرر، التي تُبَصِّر الإنسان بحقيقة نفسه، وتُطلعه على أحوال من سبقه من الأمم والأقوام، ليعتبر منها ويتعظ. ولقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في إيصال رسالته

إلى الناس، فتارةً يعتمد أسلوب الحوار بهدف الإقناع وإقامة الحجة، وتارةً أخرى يستخدم أسلوب ضرب الأمثال لتقريب الحقائق وترسيخ الأفكار في ذهن المتلقي، وفي كثيرٍ من سوره وآياته يجنح إلى أسلوب القصة لتشويق القارئ، وتيسير مهمة استخلاص العبرة والعظة منها، وفي بعض الآيات يعتمد على أسلوب التربية النفسية التي تخاطب قلب المتلقي وعاطفته، وفي آيات أخرى يكون الخطاب مُوجَّهًا إلى فطرة الإنسان السَّوِيَّة عبر حشد الأدلة التي تعزز الإيمان في النفوس ولا يمكن لعاقل أن ينكرها، وفي بعض آياته الكريمة تبرز التوجيهات التربوية التي تنظم حياة الناس، وهذه الأساليب المتنوعة لا تخفى على كل مَن يحرص على قراءة القرآن الكريم قراءة تدبر وتأمل.

والقرآن الكريم قد اعتنى بأسلوب القصة عناية خاصة، لما يحققه هذا الأسلوب من مقاصد عظيمة في نفوس قراء كتاب الله تعالى، فالله تبارك وتعالى قد بَيَّنَ بأن هذه القصص التي جاءت في القرآن الكريم هي أحسن القصص: «نحن نقص عليك أحسن القصص»، ولها مقاصد جليلة، وفيها فوائد عظيمة، يجنيها القارئ المتدبر لكتاب الله تعالى، فقد تناولت قصص القرآن الكريم حياة الأمم السالفة، والحالة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك، وموقفهم تجاه رسالات الله سبحانه وتعالى التي حملها إليهم أنبياؤهم عليهم السلام. ومن خلال استعراض هذه القصص تترسخ عقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، فهي القضية المركزية في قصص القرآن الكريم، والمتأمِّل لقصص القرآن يجد تشابهًا كبيرًا بين بعض

الأحوال والممارسات والظروف التي كانت سائدةً في حياة تلك الأمم، وبين ما نعيشه في واقعنا المعاصر، ولذلك كان استخلاص العبر والعظات من المقاصد الرئيسة لقصص القرآن الكريم، كما جاء في قوله تعالى: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب»، فالعاقل من اتعظ بغيره، واستخلص الدروس من تاريخ الأمم التي سبقته. وفي هذا الزمان الذي تكثر فيه الأزمات والمحن، ويتعرض فيه المسلمون إلى فتن كقطع الليل المظلم، يبرز الدور العظيم للقرآن الكريم، وخاصة ما جاء فيه من قصص الأنبياء والمرسلين، لِما فيها من تثبيت لقلوب المؤمنين الصادقين، وتسلية لنفوس المسلمين المضطهدين، فالرسل والأنبياء قد تعرَّضوا لألوان مختلفة من العذاب والاضطهاد، «وكلًّا نَّقُصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت فؤادك».

يأخذ هذا الكتاب القارئ في رحلة تأمُّلية لمجموعة من قصص القرآن الكريم، نتوقف فيها عند كل قصة مجموعة وقفات تدبرية، نسلط فيها الضوء على ما حوته هذه القصص من العبر والعظات في جوانب العقيدة والسلوك، ونلقي نظرة على الفتن المتنوعة التي تعرّضت لها الأمم من قبلنا، سواء أكانت في جانب العقيدة أو السلوك الاجتماعي والاقتصادي وغيره. ونستعرض سُبُلَ النجاة من هذه الفتن، ونتطرَّق إلى بعض العلاقات الإنسانية التي وردت في هذه القصص، وفنون الدعوة والحوار والإدارة، ونربط هذا كله بواقعنا المعاصر، لنخرج من هذه الرحلة التأمُّلية بزاد إيماني ومعرفي يُحَقِّقُ ما أمرنا الله تعالى به من عبادة التفكُّر: «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون»، فيزيدنا هذا التفكر

هدىً وثباتًا وخبرةً، ويُلهمنا حسن التصرف في مواقف الحياة المختلفة.

والله تعالى أسأل أن يوفق القارئ في ختام هذه الرحلة إلى استخلاص العبر والعظات، والتَّزوُّدِ من خير الزاد الذي يعينه في الطريق إلى يوم المعاد، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ويكتب له القبول والنفع للعباد.

علي حسن صالح العبيدلي

قصة آدم عليه السلام
سورة الأعراف
من الآية ((11- 23))

قصة آدم عليه السلام

أسباب المعصية الكبرى:

الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام، وعلّمه الأسماء كلها، وجعله وذريته خلفاء في الأرض، وأمر الملائكة الكرام أن يسجدوا له سجودَ تكريم واحترام وتوقيرٍ، لا سجودَ عبادةٍ: «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم»، فامتثل الملائكة الكرام لأمر الله سبحانه وتعالى، وسجدوا كلهم أجمعون، إلا إبليس لم يسجد معهم، وأبى الامتثال للأمر الربّاني، فقال الله تعالى له: «ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك»، فأجاب إبليس -لعنه الله تعالى- إجابة الخيبة والخسران، والكِبر والعصيان، فقال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين».

معصية إبليس لأوامر الله عز وجل كانت سببًا في طرده من رحمة الله تبارك وتعالى: «فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين»، فانتهى به المقام إلى معاندة أوامر الله تعالى، ومحاولة إغواء عباده، ليصبح مصيره ومصير أتباعه كما قال تعالى: «لأملأن جهنم منكم أجمعين»، وإذا تأمّلنا في الأسباب التي دفعت إبليس عليه لعنة الله تعالى إلى ارتكاب معصيته الكبرى، سنجدها ترتكز على ركيزتين أساسيتين هما: الكِبر الذي منعه من السجود لآدم: «أنا خير منه»، وقياسه الفاسد ومقارنته الخاطئة: «خلقتني من نار وخلقته من طين».

إن الكِبر داء خطير، يتغلغل في النفس البشرية، فيجعل القلب

قاسيًا، ويفسد النية، ويحبط الأعمال، ويُطفئ نور البصيرة، فيبدأ الإنسان بالنظر إلى ما في يد غيره من آلاء أنعم الله تعالى بها عليه، ويقارنها بحاله، فيَدُبُّ الحسد في نفسه، ويمتلئ قلبه غيظًا وبغضًا لصاحب النعمة، ويندفع إلى اقتراف الذنوب والمعاصي التي تفسد عليه دنياه وآخرته، فالمؤمن يُحصِّنُ نفسه من داء الكِبر والإعجاب بالنفس إذا تحلّى بخُلُق التواضع، ويتخلَّصُ من عُقدة القياس الفاسد والمقارنات الخاطئة، إذا ملأ قلبه بالرضا والقناعة.

دائرة المحرّمات الضيقة:

أمر الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام وزوجته حواء -التي أنعم تعالى بها عليه ليسكن إليها- أن يأكلا من الجنة حيث شاءَا، ويتمتعا بما فيها من نعيم: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما»، وعَيّنَ لهما شجرةً من الأشجار الموجودة، ونهاهما عن الاقتراب منها: «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»، وبذلك أباح الله تبارك وتعالى لآدم وزوجته التمتع بجميع الأصناف من الثمار والمأكولات، فيختارون ما يشاؤون منها، ونهاهم نهيَ تحريم عن شجرة واحدة فقط.

آدم عليه السلام وزوجته لهم حق التمتع بنعم الله تعالى المباحة والمتاحة التي لا تُعد ولا تُحصى، وواجب عليهم الامتثال للأمر الإلهي العظيم بعدم الاقتراب من شجرة واحدة فقط، فلا مجال للمقارنة بين الأشجار والثمار والمأكولات والنعم المباحة، وبين

شجرة واحدة فقط مُحرَّمة نهى الله تعالى عن الاقتراب منها فضلًا عن تذوق ثمرها وأكله، لأن الاقتراب من دائرة المحرَّمات يساعد على ولوجها والانغماس فيها، ولذلك جاء النهي الربّاني عن الاقتراب من كثير من المحرمات في الشريعة: «ولا تقربوا الزنى»، «ولا تقربوا الفواحش»، «ولا تقربوا مال اليتيم»، فالابتعاد عنها يحصّن الإنسان من الوقوع فيها.

وإذا أمعنّا النظر في شريعتنا السمحاء، وتأمّلنا أحكام الحلال والحرام، وحصرنا ما أحلّه الله تبارك وتعالى وأباحه لنا، وفي مقابل ذلك عدّدنا المحرمات التي نهانا الله تعالى عنها، سنجد أن دائرة الحلال أكبر اتساعًا، وأكثر شمولًا من دائرة المحرّمات الضيقة جدا، والتي يجمع مرتكبها بين مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى والضرر الناجم عن هذه المعصية، فعجبًا لمَن يتغافل عمّا أحله الله تعالى له من أمور كثيرة لا تُعد ولا تُحصى، ويمدُّ عينيه إلى أمور محدودة ومعدودة حرّمها الله تبارك وتعالى عليه! فهذا والله من الخذلان الذي يدفع صاحبه إلى السقوط في وحل المعاصي والذنوب.

لا تتبعوا خطوات الشيطان:

كرّمَ الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام وزوجته، وأسكنهما الجنة، وأباح لهما الأكل من خيراتها المتنوعة، ومنع عنهما الجوع والظمأ والحر وكل أنواع الأذى، وحرّم عليهما شجرة واحدة فقط، فبدأ الشيطان الرجيم بنسج خطته الخبيثة لإخراج آدم عليه السلام وزوجته من الجنة، واتخذ المكر والكذب والخداع والوسوسة نهجًا له في تعامله مع آدم وذريته من بعده.

وضع الشيطان الرجيم الخطوات التنفيذية لخطته الخبيثة، وتدرّج في تزيين المعصية لآدم وزوجته، فبدأ بذِكر ميزة الأكل من الشجرة المحرّمة: «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملَكيْن أو تكونا من الخالدين»، فصوّر لهما أن الأكل من هذه الشجرة سيمهد لهما الطريق ليكونا من جنس الملائكة! واستمر في وسوسته، وانتقل إلى الخطوة الثانية: «وقاسمهما»، فأقسم لهما بالله تعالى قسمًا كاذبًا ليبين لهما صدقه وحرصه على مصلحتهما، ثم ارتدى ثوب النصيحة، وتكلّم بلسان الواعظ المشفق: «إني لكما من الناصحين»، فاغترّا به، وتأثرا بتحريضه. وغلبت الشهوة العقل: «فدلاهما بغرور» وأقدما على الأكل من الشجرة، فبدت لهما سوآتهما، فأُخرجا من الجنة، وقال الله تعالى لهما: «ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين».

الشيطان الرجيم عدو لآدم وذريته، هدفه في هذه الحياة قيادة الناس إلى طريق الغواية والضلال، ليخرجهم من نور الإيمان إلى

ظلمات الكفر والعصيان، متبعًا حِيَلَهُ الخبيثة التي استخدمها في خداع آدم وزوجته، فيوسوس للناس، ويزيّن لهم الباطل، ويهوّن عليهم فعل المعاصي واقتراف الذنوب، ويُلبس وسوسته الخبيثة ثوب النصيحة والحرص على مصلحة الناس، حتى تضعف همتهم في الطاعات، ويصبح الإنسان فريسة سهلة لسهام إبليس، فيستسلم لمؤامراته، ويقع في المحظور، والله تعالى يحذرنا من الوقوع في حبال فتنة الشيطان: «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان»، ويكشف الله عز وجل الهدف الخبيث الذي يسعى الشيطان لتحقيقه من وسوسته للناس: «كما أخرج أبويكم من الجنة»، فالشيطان الرجيم لا يشفي غليله، ولا يبرد سعاره، إلا إذا نجح في إبعاد الناس عن الجنة، فالحذر الحذر من الشيطان الرجيم ومن خطواته ووسوسته، وليكن سلاحنا في مواجهة وسوسته ومؤامراته اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى ودوام ذِكْرِه والاستعاذة به من الشيطان الرجيم.

توبة وإنابة:

نجح الشيطان اللعين في تزيين المعصية لآدم وزوجته، فتذوقا من الشجرة المحرمة، ثم هبطا من الجنة، وأدركا حجم الخطأ الذي ارتكباه، فحرّك قول الله سبحانه وتعالى لهما: «ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين» الفطرة السليمة في نفسيهما، فبدأت ملامح التوبة النصوح تتشكل، وتصبح خطواتها ومعالمها باديةً من خلال ندمهما على فعل

المعصية، والاعتراف بالذنب، والإقرار بظلم النفس، ثم طلبهما المغفرة من الله سبحانه وتعالى، فقالا: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»، هذه الكلمات حَرِيٌّ أن تكتب بماء الذهب، وتعلق في الميادين، ويجعلها الإنسان نبراسًا له في حياته، يضيء له طريق التوبة كلما أطبقت عليه ظلمات المعاصي والذنوب.

الخطوة الثانية التي ينتقل إليها الشيطان الرجيم بعد نجاحه في إقناع الإنسان بفعل المعصية وارتكاب الذنب، هي صَدُّه عن التوبة النصوح، وذلك بتبسيط نظرته إلى المعصية وحجمها، وإغرائه بطول الأمل، ووضع العراقيل التي تحول دون اتخاذه قرار التوبة، والإقلاع عن المعاصي، لكي لا ينجو من النار، ويدخل في ركب التائبين إلى جناتٍ عرضها السماوات والأرض.

الإنسان مُعَرَّضٌ للوقوع في الذنب وارتكاب المعاصي، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فالتوبة هي حبل النجاة الذي إن تمسك به الإنسان المخطئ المذنب، نجا من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن خزي الدنيا والآخرة، التوبة صحوة ضمير، يتبعها تأنيب وندم، ثم قرار شجاع بالإقلاع عن الذنب، وطلب المغفرة من الغفور الرحيم غافر الذنب وقابل التوب، الذي يقبل التوبة من عباده مهما أسرفوا على أنفسهم، فينجو التائب برحمة ربه تعالى، ويخسأ الشيطان، وينقلب مذمومًا مدحورًا.



قصة أصحاب الكهف
سورة الكهف من الآية ((9- 26))

قصة أصحاب الكهف

وصفة النجاة:

إذا أحاطتْ بك الابتلاءات من كل جانب، وضاقت عليك الأرض بما رحبت، وسُدَّت في وجهك أبواب الرجاء والأمل، فلا تيأس ولا تجزع، واعلم أن مع العسر يسرًا، ولن يغلب عسر يسرين، وتأملْ في قصة أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى، وفرّوا إليه فأمَّنهم، وحفظوا دينهم فحفظهم، إنهم ركبوا سفينة النجاة، فوصلوا إلى بَرِّ الأمان بحفظ الله تعالى ورعايته.

استمعْ إلى قولهم، وتعرّفْ على خطواتهم التي أوصلتهم إلى شاطئ النجاة، واتبع سبيلهم، يحفظك الله تعالى كما حفظهم.

«إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا»، هجروا قومهم الذين فتنوهم في دينهم، وتحصَّنوا في الكهف طلبًا للسلامة، وتضرعوا إلى ربهم تبارك وتعالى، وصفة نجاة ذهبية: (الفرار من الفتن والذنوب – اللجوء إلى كهف الطاعات – ودعاء رب الأرض والسماوات)، طبقها الفتية. فحفظهم الله تعالى، وحفظ لهم دينهم، ورفع ذِكرهم في الدنيا.

إذا ابتليت بشهوة مُحَرَّمة فاهجرها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وفارق البيئة التي تساعدك فراقا أبديًا لا رجعة فيه، وإذا أحسست بشبهة تتسلل إلى قلبك لتفسده، فاعتصم بالله تعالى، واسأله الثبات على الدين، والعزيمة على الرشد.

وعند كل مصيبة تعترضك في هذه الحياة الدنيا، وكل هَمٍّ يهاجم نفسك المطمئنة ليطفئ أنوار الأمل فيها، فأوِ إلى كهف يعصمك الله تعالى به من الهموم والأحزان والمصائب والشهوات والشبهات، واخترْ كهفك الذي تأوي إليه بعناية، فقد يكون كهفك ركعتيْن تصليهما في جوف الليل فيكشف الله تعالى بهما كربك، وقد يكون كهفك خبيئة صالحة لم يطَّلع عليها أحد، أو كربة فرّجتها عن مُعسر، أو بِرًّا قدمته لوالديك، أو رَحِمًا وصلته بعد قطيعة، أو غيرها من الأعمال الصالحات.

وليكن الدعاء مصاحبًا لك في كل حال: «ادعوا ربكم تضرعًا وخفية»، واعلم أن الله تعالى يرفع البلاء بالدعاء، ويجيب دعوة المضطر إذا دعاه، وأمر عباده بالدعاء ليستجيب لهم، فاجمع أمنياتك، وارفعها إلى رب السماوات والأرض، وادعُ وأنت موقن بالإجابة، فإنك تدعو ربًا حييًا كريمًا يستحي أن يردَّ عبده إذا رفع يديه داعيًا بإخلاص.

طمأنينة قلب:

عندما تعصف رياح الفتن بالبشر، وتتقلب القلوب والأحوال والمواقف، فلا تستغرب إذا رأيت من كنت تظنه حليمًا قد أصبح حيرانا، ولا تتعجب من أحوال بعض من كنت ترى فيهم نموذجًا للرموز والقدوات وقد نكصوا على أعقابهم، ونقضوا غزلهم من بعد قوة أنكاثا. فعند هذه الفتن المظلمة، والأحداث المقلقة، لا يثبت إلا مَن كان مؤمنًا بالله تعالى حق الإيمان، متوكلاً على ربه

سبحانه وتعالى، مفوضًا الأمر إليه، راضيًا بقضائه وقدره، صابرًا على الابتلاءات، شاكرًا النعم والمكرمات، فهؤلاء يثبتهم الله تعالى في هذه الأوقات العصيبة، ويربط على قلوبهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا، ويجعل عاقبة أمرهم خيرًا.

أصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم، لم تثنهم حملات التخويف والترهيب عن الثبات على مبادئهم، ولم تفتنهم حملات الترغيب والإغراء، بل تمسَّكوا بثوابتهم، وحفظوا دينهم من أهل الزيغ والضلال، فحصدوا مكافأة إيمانهم، وجزاء ثباتهم، تأمَّل هذه المكافأة العظيمة «فزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم»، في الوقت الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر، وتتزعزع فيه المواقف، وتضطرب فيه النفوس المطمئنة، يربط الله تعالى على قلوب عباده المؤمنين الموحدين، يا له من فضل عظيم، إنه الربط على القلوب وما أدراك ما الربط على القلوب، إنه الهدى في وقت الزيغ، والثبات عند الفتن، والطمأنينة عند اشتداد الخوف، والسكينة عند القلق.

أم موسى عليه السلام ألقته في اليَمّ بقلب مطمئن ونفس راضية، لأنها تعلم أنه بحفظ الله تعالى ورعايته، فربط الله تعالى على قلبها في ذلك الموقف، وردّ إليها ولدها.

وفي زمن أصبحت فيه الفتن كقطع الليل المظلم، ما أحوجنا إلى أن ندعو الله تبارك وتعالى أن يربط على قلوبنا، وينزل عليها الطمأنينة والسكينة، ويثبتها في الأحداث المزلزلة والمصائب العظيمة، ونقتدي برسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- الذي علَّمنا الدعاء المأثور: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك).

رفعت الأقلام وجفت الصحف:

مَن يتأمل قصة أصحاب الكهف، وقوة إيمانهم بالله تبارك وتعالى، وثقتهم به سبحانه، وكيف حفظهم الله تعالى من أعدائهم، ورفع ذِكرهم، وكتب لهم الثناء الحسن، لن يجد صعوبة في الربط بينها وبين الوصايا العظيمة التي أهداها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)، فأصحاب الكهف حفظوا دينهم، وتحصَّنوا بعقيدتهم «فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها»، فلم يرعبهم علو صوت الباطل، ولم يتراجعوا بسبب بطش أهل الزيغ والضلال، فأثمر هذا الإيمان الراسخ حسن ظن بالله سبحانه وتعالى، وبنصره تعالى لعباده المؤمنين، فحفظهم الله تعالى من الفتن، ورد كيد أعدائهم، ورفع ذِكْرَهم، وأحسنَ عاقبتهم.

ويستكمل صلى الله عليه وسلم وصاياه لابن عباس فيقول: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)، فالله تبارك وتعالى هو خير مسؤول، وهو الذي أمر عباده بالدعاء، وهو الذي يستجيب دعاء عباده، وأصحاب الكهف لم يكتفوا باتخاذ الأسباب المادية الدنيوية من اعتزال قومهم ولجوئهم إلى الكهف، بل تبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بالله سبحانه وتعالى، ورفعوا أيديهم بالدعاء: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا»، فحفظهم الله تعالى بحفظه، ونجّاهم من الفتن، وسخر لهم مخلوقاته، ويسّر لهم الأسباب، وذلّل لهم الصعاب، وجعلهم آية لمن بعدهم، وأنزل فيهم قرآنا يتلى إلى قيام الساعة.

الإيمان الراسخ بالله تعالى، وحسن الظن به، والثقة بوعده، هي أسلحة يتسلح بها المؤمن في حياته، ودرع حصين يصدُّ غارات شياطين الإنس والجن، فلن يتمكن أحد من نصرك ونفعك إذا تخلّى الله تعالى عنك (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)، فالجأ إلى الله تعالى، وتبرأ من حولك وقوتك، وثقْ بالله تعالى وبوعده لعباده، ولا تخشَ الدعايات المزيفة التي تزين للباطل قوته وسطوته، ولا ترهبك تهديدات أهل الضلال (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك).

اطلب المستحيل من الله تعالى، واجعل الدعاء سلاحك في مواجهة الشدائد، فالله تبارك وتعالى إذا استجاب لك سَخَّر لك العباد، وهيأ لك الأسباب، وفتح لك الأبواب، وذلّل لك الصعاب، ولا تخشَ أحدا سواه، فالنفع والضر، والموت الحياة، والرزق والشفاء، والهداية والفلاح، بيده وحده سبحانه وتعالى، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

آداب الكهف:

لم تَخلُ قصة أصحاب الكهف من توجيهات تربوية، وقيم أخلاقية، يحتاجها الإنسان في حياته ومعاملاته، ويحتاجها طالب العلم في رحلة طلبه وتحصيله.

في القصة حثٌّ على طلب العلم، وتشجيع على البحث والمُدارسة: «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم»، وفي ذلك إشارة

إلى فضل قضاء الأوقات في طلب العلم النافع، والبحث الذي يؤدي إلى فلاح الدنيا والآخرة. وفي القصة كذلك أدب رفيع يجب على العلماء وطلاب العلم أن يتحلّوا به، وهو رد العلم إلى عالمه: «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم»، فمهما بلغ الإنسان من علم ومعرفة يظل علمه قاصرًا، فقد علم أشياء وغابت عنه أشياء أكثر، فسبحان الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو فوق كل ذي علم عليم.

اختلفَ أهل الكتاب في عدد أصحاب الكهف على ثلاثة أقوال، وقال الله تعالى بعد أن ذَكَرَ أقوالهم: «قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرًا»، وفي ذلك إشارة إلى أن الله تبارك وتعالى فوق كل ذي علم عليم سبحانه، وأنه عالم الغيب، وفيه تنبيه على عدم إضاعة الأوقات في الجدال والخلافات والمناقشات التي لا فائدة مرجوة من ورائها، فكل نقاش لا تحصل من ورائه على معرفة دينية أو فائدة دنيوية، فترك الخلاف فيه أولى، لأن فيه هدرًا للأوقات الثمينة، وسيترك أثرًا سلبيًا في النفوس، فكم من نقاشٍ تحوَّل إلى جدال، وأدَّى في النهاية إلى قطيعة رحم، أو إفساد صداقة، أو انتشار البغضاء بين المتحابين، فاحذر حظوظ النفس، وصُنْ وقتك الذي ستحاسب عليه، وقدِّمْ كسب القلوب على نشوة الانتصار في أي جدال مذموم.

وفي توجيه آخر من سورة الكهف يقول سبحانه وتعالى: «ولا تستفت فيهم منهم أحدًا»، أي لا تسأل أهل الكتاب عن قصة أصحاب الكهف، لأنهم سيرجمون بالغيب، وفي ذلك دليل على منع استفتاء من لا يصلح للفتوى، فالإفتاء أمر عظيم، ولا يتصدّى

له إلا من تتوافر فيه هذه الشروط، فواجب على الإنسان أن يتحرّى قبل أن يستفتي في أمر دينه، فكم من فتاوى غير منضبطة بضوابط الشرع الحكيم تسببت بمصائب عظيمة، وسُفكت بسببها دماء، وضاعت حقوق، وأحلّت حرامًا، وحرّمت ما أحله الله تعالى، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يبين لنا ضرورة استفتاء أهل العلم والذِكر من خلال قصة الرجل الذي قتل 99 نفسًا، فاستفتى عابدًا فقال له ليس لك توبة فقتله وأكمل به مئة نفس، ثم استفتى عالمًا فأرشده إلى الطريق الصحيح.

قصة صاحب الجنتيْن

سورة الكهف من الآية ((32 - 44))

قصة صاحب الجنتين

الـ (أنا) المهلكة:

الغرور من الذنوب الكبيرة التي تؤدي إلى هلاك الأمم، وتدمير المجتمعات، وفساد الأفراد، فمتى ما تمكَّن الغرور من صاحبه فتك به، وأعمى بصيرته، وجعل قلبه أشد قسوة من الحجارة، لا يقبل نصحًا، ولا ينكر منكرًا، ولا يعود إلى خالقه تبارك وتعالى، والغرور من أول الذنوب التي عُصي الله تعالى بها، فقد رفض إبليس -عليه لعنة الله- أن يسجد لآدم غرورًا واستكبارًا عبّر عنه بقوله: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين»، هذه النظرة الفوقية منعت إبليس من الاستجابة إلى أمر الله تبارك وتعالى، فكانت سببًا لغضب الله عز وجل عليه.

وفي قصة صاحب الجنتين يتسبب الشعور بالفوقية، وتضخم الـ (أنا) بفقدان النعمة التي كان يتمتع بها صاحب الجنتين، الذي بدأ حواره مع صاحبه بقوله: «أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا»، لم ينسب الفضل والنعمة وما يتمتع به من الخيرات إلى الله الوهّاب سبحانه وتعالى، بل اغترَّ بهذه النعمة، ودفعه غروره إلى التفاخر بما عنده من النعم، وتعدى ذلك إلى ادعائه الزائف أن هذه النعم لن تبيد، وسيجد أفضل منها في الآخرة! فحصد الحسرة والندم، وفقدان النعم.

التوجيهات الربّانية في القرآن الكريم تأمرنا بتجنب هذا السلوك المذموم المُدمِر، فالله تعالى يقول: «ولا تمشِ في الأرض

مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا»، لا تتكبر ولا تتعالَ على عباد الله تعالى، بل تواضعْ، وأرجعْ الفضل والخير والنعمة لله سبحانه وتعالى، وَضَعْ نُصْبَ عينيك قوله تعالى: «إن الله لا يحب كل مختال فخور»، فإياك أن تكون من الذين لا يحبهم الله تبارك وتعالى بسبب كبرهم وغرورهم وتعاليهم على الناس، فذلك والله هو الخسران المبين.

وإذا دعتك نفسك إلى التكبر والغرور، فذكِّرها بما يجره الكِبر على صاحبه يوم القيامة من ويلات، عندما يكون حاجزًا يصدُّه عن دخول الجنة، فرسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- قال: (لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

تواضَعْ لله تعالى يرفع مقامك في الدنيا وتكون من الفائزين المفلحين في الآخرة «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا».

اعرفْ قدرك أيها الإنسان:

بعض الناس ينشغل بالنعم، وينسى المُنعم والعياذ بالله تعالى، فيصاب بالطغيان وكفر النعمة، بل قد يصل به الزيغ والضلال، إلى الظن أن هذه النعم قد اكتسبها بجهده وعقله وذكائه وحسن تدبيره! فيقابل نعم الله تعالى عليه بالجحود، ويبارز الله عزَّ وجل بالمعاصي وكبائر الذنوب.

صاحب الجنتيْن كان نموذجًا للإنسان الذي أنكر فضل الله تبارك وتعالى عليه، وزاده غروره طغيانًا وكفرًا بنعمة الله تعالى

عليه، ونسي بداية خلقه، والضعف الذي انطلق منه بداية تكوينه، فذكَّره صاحبه المؤمن الناصح بقوله: «أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلًا»!

تذكَّرْ أيها المغرور ضعفك وقوة الله سبحانه وتعالى، واعلمْ أن تراب الأرض الذي تطؤه بقدمك مختالًا فخورًا، هو الأصل الذي خُلقت منه، فاقصدْ في مشيك واغضضْ من صوتك، واستحضرْ الماء المهين الذي خُلِقَتْ منه، وتبرَّأْ من حولك وقوتك، والْجأ إلى الله سبحانه وتعالى، وتُبْ إليه واستغفره استغفارًا كثيرًا.

وإذا رأيت من نفسك تكبرًا وغرورًا وإعراضًا عن طاعة الله سبحانه وتعالى، فأرغم أنفها بعرض حقيقة ضعفها، وأدِّبها بآيات الله تعالى البيّنات التي توضح عَظَمَةَ الخالق سبحانه وتعالى، واضرب لها الأمثلة النقلية والعقلية التي تعيدها إلى رشدها.

«يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم»، إن القوةَ التي تتفاخر بها، والمال الذي تتباهى به، والأولاد الذين تحتمي بهم، والسلطان الذي تعتزُّ به، سيقفون عاجزين خائرين أمام جرثومة صغيرة تباغت جسدك الضعيف، فتنهك قواك، وتسلب عافيتك، وتُزهِّدك بمالك وجاهك وسلطانك.

اعرفْ قدرك، واستمتع بعبوديتك لله تعالى، وكبِّرْ ربك بلسان حالك ومقالك، واستشعر عَظَمَته، وأرجعْ ما أنت فيه من خير ونعمة وفضل إليه، واشكره بالقول والعمل، فهو وحده المستحق للحمد والشكر والعبادة والتعظيم والثناء.

يا ليت قومي يعلمون:

برزت شخصية مميزة في قصة صاحب الجنتين، وهي شخصية الصديق المؤمن بالله سبحانه وتعالى، الشاكر لربه، المقتنع بما آتاه الله تعالى، صاحب البصيرة والفهم والرشاد.

هذا رجل أنعم الله تعالى عليه بالإيمان الراسخ، ووفقه لامتلاك مهارات عديدة، فهو مؤمنٌ بالسنن الإلهية، خبيرٌ بطرق الدعوة، مُتفننٌ في أساليب الوعظ والإرشاد، مُتقنٌ لفنون الحوار، يملك روحًا عاليةً من المسؤولية، وفهمًا واضحًا لمفهوم الصداقة الحقيقية، ووفاءً عظيمًا للصديق.

لم يجامل صاحبه الجاحد المغرور، بل حاوره بلطف وحكمة، ووعظه موعظة حسنة بليغة، تؤثر في نفوس أولي الألباب، فذكَّره بأصل خلقه، وبيَّن له فضل الله المنعم عليه، وأخذ بيده إلى جادة الصواب، وكشف له خطورة الغرور والتكبر، وأرشده إلى وجوب شكر الله عزَّ وجل على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، ولكنه أبى وتكبَّر، فتحوَّلت النعمة عنه، وأصبح بائسًا نادمًا على فعله.

هذا الرجل كان مثالًا للإيجابية، ونموذجًا للشعور بالمسؤولية، وقدوةً للدعاة والمصلحين، لم يجعل ما وهبه الله تعالى له من مهارات وقدرات حبيسة عقله وجسده، بل وظَّفها في الدعوة إلى الله تعالى والنصح والإرشاد، ولم يكتفِ بصلاحه الشخصي، بل قام بدوره الإصلاحي في المجتمع، فأخذ ينشر ثمرات صلاحه الشخصي على مَن حوله، وهذا واجب المسلم في هذه الحياة، أن يحرص على اكتساب المهارات التي تُنمي من قدراته، ويوظفها

في خدمة دين الله تبارك وتعالى، فالمجتمعات لا تتقدم بصلاح أفرادها الشخصي فقط، ولكنها تتطور بالدور الكبير الذي يقوم به المصلحون من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وتبليغ لدين الله سبحانه وتعالى.

الصديق المُخلِص عملة نادرة، فمن وَجَدَ صديقًا مخلصًا فليتمسك به، فهو مرآة لصديقه، يُبَصِّرُه بعيوبه دون مجاملة، ويبذل وُسْعَهُ في نصحه، ويحب له الخير كما يحبه لنفسه، ويتقاسم معه الفرح والحزن، ويقف إلى جانبه في المواقف العصيبة، وخَيْرُ الأصدقاء التَقِيُّ الذي يأخذ بيد صديقه إلى طاعة الله عزَّ وجل.

قصة ذي القرنيْن

سورة الكهف من الآية ((83 - 98))

قصة ذي القرنيْن

الأخذ بالأسباب:

ذو القرنين الملك الصالح الذي ذَكَرَ الله تعالى نبأه في سورة الكهف، وعُرف بعدله وصلاحه وسعيه في تبليغ دعوة الله عز وجل في مشارق الأرض ومغاربها، وقال الله تعالى في بداية قصته: «إنا مَكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببًا»، وهنا يبين تعالى فضله على ذي القرنين، وأسباب التمكين التي آتاه إياها فمهدت له طريق الحكم والمُلك والقيادة.

أَحْسَنَ ذو القرنين استثمار هذه الأسباب، فلم يركن إلى الدعة والكسل، ولم ينتظر أحدًا من البشر يرشده ويوجهه، بل أخذ بالأسباب التي أنعم الله تعالى بها عليه، واستثمرها لتحقيق أهدافه الدعوية، فجالَ الأرض، ووصل إلى مشارقها ومغاربها، ونشر التوحيد، وأقام العدل بين الناس، وعاقب الظالم، ونصر المظلوم، ومدّ يد العون للمحتاجين، فاستفاد من الأسباب، واستثمرها في نشر الخير.

وكل إنسان يملك الكثير من الأسباب التي وهبها الله تعالى إياها، فالصحة والعقل والفراغ وسبل التعليم المتاحة وسرعة الاتصالات والتواصل وسهولة الحصول على المعلومات، كلها من الأسباب التي تعين الإنسان على تحقيق النجاح في حياته، ولكن الكثير يغفل عن هذه الأسباب، ولا يأخذ بها، ويشتكي من قلة الإمكانات، وانعدام الفرص، ولو أبصر في نفسه، لوجد الكثير

مـن الإمكانـات التـي يملكهـا، والفـرص المتاحـة لـه، ولكنهـا تحتـاج إلـى عـزم وإصـرار، واسـتثمار مناسـب، بعـد التـوكل علـى الله سـبحانه وتعالـى.

العمل الجماعي:

يواصـل ذو القرنيـن رحلاتـه حـول العـام، ويصـل إلـى نقطـة بيـن جبليْـن عظيميْـن، «حتـى إذا بلـغ بيـن السـديْن وجـد مـن دونهمـا قومًـا لا يـكادون يفقهـون قـولًا»، فـي هـذا المـكان قـوم عاجـزون، عندهـم من قلـة الفطنـة، وضعـف الحيلـة، وعـدم القـدرة علـى التدبيـر والتفكيـر، مـا جعلهـم صيـدًا سـهلًا، ولقمـةً سـائغةً لقـوم يأجـوج ومأجـوج، الذيـن يخرجـون مـن بيـن الجبليـن، ويفسـدون فـي الأرض، ويهلكـون الحـرث والنسـل.

هـؤلاء القـوم تقدّمـوا بشـكواهم إلـى ذي القرنيْـن، وطلبـوا منـه المعونـة والمسـاندة، لصـد هجمـات يأجـوج ومأجـوج، وعرضـوا عليـه مكافـأة مقابـل أن يبنـي لهـم سـدًا يُحصِّنهـم مـن هجماتهـم، فوافـق ذو القرنيـن علـى بنـاء السـد دون مقابـل، ولكنـه نفـض غبـار الكسـل عنهـم، وطلـب منهـم المشـاركة معـه فـي العمـل، وحـدَّدَ لهـم الأدوار المطلوبـة منهـم: «فأعينونـي بقـوة»، «آتونـي زبـر الحديـد»، «قـال انفخـوا»، «آتونـي أفـرغ عليـه قطـرًا»، فنقلهـم مـن أمـة عاجـزة حائـرة، إلـى أمـة منتجـة قـادرة علـى العمـل والإنجـاز، واكتشـف قدراتهـم ومواهبهـم التـي تغطيهـا رمـال الكسـل والعجـز، وأشـعرهم بأهميـة دورهـم فـي بنـاء السـد، وقدرتهـم علـى الدفـاع عـن أنفسـهم.

القائد الناجح هو من يستثمر إمكانات فريق العمل الذي يقوده، ويحثهم على العمل بروح الفريق الواحد، ويكتشف مواهبهم، ويزرع الثقة في نفوسهم، ويحدد المهام المطلوبة، ويوزعها بحسب قدرات أفراده، ويعتمد التشجيع والتحفيز في حواره معهم، فإن فعل ذلك فسيحصل على فريق متميز قادر على العطاء والإنجاز.

الاعتراف بالفضل لله عز وجل:

الملك الصالح ذو القرنين صاحب القوة العظيمة، والقدرات الهائلة، الذي جاب البلاد، ونشر العدل، وحارب الظلم، ونصر الضعيف، وأعان المحتاج، لم ينسب هذه الأعمال التي قام بها لنفسه، ولم يتفاخر بقوته، ولم يتحدث عن إمكاناته وقدراته ومهاراته، بل كان ينسب الفضل لصاحب الفضل -لله سبحانه وتعالى- الذي آتاه الأسباب التي مكنته من القيام بهذه الأعمال الكبيرة، وأعانه على إنجازها، فكان في كل محطة من محطات حياته، وفي كل رحلة من رحلاته، وبعد كل عمل عظيم ينتهي من إنجازه، يذكر فضل الله عز وجل عليه، فعندما عرضوا عليه المال والمكافأة مقابل بناء السد قال: «ما مكنّي فيه ربي خير»، فنَسَبَ ما يتمتع به من إمكانيات وقدرات إلى توفيق الله سبحانه وتعالى له، وعند انتهائه من بناء السد العظيم الذي منع إفساد يأجوج ومأجوج قال: «هذا رحمة من ربي».

الاعتراف بالفضل لله سبحانه وتعالى، والافتقار إليه، هو دأب الأنبياء والصالحين من بعدهم، فهذا نبي الله تعالى سليمان عليه

السلام الذي آتاه الله تبارك وتعالى مُلكًا لم يؤته أحدًا من بعده يقول: «ذلك من فضل ربي»، ويوسف عليه السلام يقول لأبيه بعد أن مَنَّ الله تعالى عليه: «هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًا وقد أحسن بي»، وإبراهيم عليه السلام يشكر ربه على نعمة الذرية: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق»، وموسى عليه السلام الذي مَرَّ في حياته بمحطات الابتلاء، وحاصرته المخاطر من كل جانب يقول: «ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير»، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته يُردِّدون يوم الخندق: والله لولا الله ما اهتدينا.

الافتقار إلى الله الغني سبحانه وتعالى، والاعتراف له بالفضل، واجب على كل مسلم، فحين تَتجدد النعم أرجِعْ الفضل للمُنعِم سبحانه، وإذا أنجزتَ شيئًا من الأعمال، فتبرأْ من حولك وقوتك، وأرجعْ الفضل للقوي العزيز، وإذا نجوت من المخاطر والأزمات، فلا تفخر بذكائك وحكمتك، ولكن اشكر العزيز الحكيم الذي نجّاك، واشكره على فضله ومنّته.



قصة مؤمن آل فرعون

سورة غافر من الآية: ((28 - 32))

قصة مؤمن آل فرعون

الرجولة الحقيقية:

في الوقت الذي كانت فيه الدعاية الإعلامية الفرعونية تُزيِّف الحقائق، وتدّعي الخوف على عقائد الناس ودينهم، وتُحذِّر الناس من نبي الله موسى عليه السلام، وتتهمه بالباطل، وتساند آلة البطش والإرهاب الفرعونية التي تستعد لقتل موسى عليه السلام، تحت غطاء هذه الدعاية المزيفة: «وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد»، في هذا الوقت انطلقت كلمة الحق لتخترق جدار الرعب الفرعوني، فبرز رجل مؤمن يصدع بكلمة حق زلزلت عروش الزيف والباطل، فخلّدَ الله سبحانه وتعالى هذا الموقف الشجاع في كتابه الكريم: «وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله»، فلم يَرِدْ ذِكْرُ اسمه أو وصفه أو كنيته، ولكن وصفه الله تعالى بأنه (رجل)، لنتعرف على صفات الرجولة التي اجتمعتْ في هذه الشخصية، ومنها: الإيمان، والصَّدعُ بكلمة الحق في المواقف المفصلية، والنصح وحب الخير للناس. وفي ذلك دلالة على أن الرجال القدوات يتميزون بأفعالهم ومواقفهم، لا بأسمائهم وأنسابهم، ولذلك خلَّدَ الله تعالى في القرآن موقف الرجل وفعله، ولم يتطرَّق إلى اسمه ونسبه.

هذا الرجل الذي كان يكتم إيمانه لم يقبل بمكر فرعون وجنده بموسى عليه السلام، فأطلقَ صيحته مدوية في وجه إجرامهم وفسادهم وكفرهم، وحذَّرهم من قتل موسى عليه السلام.

وهكذا هم الرجال المؤمنون، لا تخدعهم دعاية الباطل المزيفة، ولا يخضعون إلى إرهابه وبطشه وتهديده، ولا يؤخرون البيان عن وقت الحاجة، تميزهم كلمة الحق التي ينطقون بها في وجه المجرمين المفسدين، ويتصفون بالشجاعة والثبات والحكمة والذكاء. فيا باحثا عن صفات الرجولة وسماتها: كن ثابتًا، وانطق بكلمة الحق بحكمة في المواقف والمشاهد الحرجة، واصنع مجدك بأفعالك ومواقفك، ولا تركن إلى نسبك وشهرتك ومالك، فالرجال يُعرفون بمواقفهم.

فنون النصيحة:

اتَّبع مؤمن آل فرعون إستراتيجية التدرج في نصح قومه، فبدأ بالاستفهام التعجبي «أتقتلون رجلا»، فلم يخص فرعون، بل جمعهم في نية ارتكاب الجريمة، ليبين لهم أن المنكرات يشترك فيها الفاعل والقابل بها والساكت عنها دون إنكار، ثم انتقل بعد ذلك إلى جولة أخرى من جولات الحوار والنصح، كشف فيها السبب الحقيقي وراء رغبة فرعون في قتل موسى عليه السلام: «يقول ربي الله»، وبعد أن جَذَبَ الأنظار إليه، وسَرَتْ الطمأنينة في نفسه، انتقل إلى جولة جديدة من جولات الحوار وهي جولة الاستدلال على بطلان دعواهم، وذلك بقوله لهم إن موسى عليه السلام قد جاءكم بالبينات والبراهين والأدلة على صدق دعوته، وهو ينتقل من جولة إلى أخرى من جولات الدعوة مستخدمًا فنون الحوار وآداب النصح بحكمة ورفق وثبات منقطع النظير،

حتى وصل إلى مرحلة تحذيرهم من عقاب الله سبحانه وتعالى وعذابه، وهنا وقفة يجب الالتفات إليها، وهي أنه قال لهم: «فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا»، فوضع نفسه معهم في إشارة إلى المصير المشترك، وإظهار الحرص عليهم، وهذا هو المطلوب من الدعاة والناصحين؛ أن يُظهروا حبهم للمنصوح، وشفقتهم عليه، فذلك أدعى أن يتقبل نصحهم، ويستجيب إلى دعوتهم.

الإعراض والتهديد وحملة التضليل والافتراءات المزيفة لم تفت في عضد هذا الداعية الموفق، بل واصل نصحه بثبات وذكاء، وحذّر قومه من مصير أسلافهم من المكذبين والمعرضين، فالاعتبار من تجارب الحياة من الأمور التي تردع بعض المكذبين، وتعيدهم إلى رشدهم، فلمّا وصل إلى نهاية الطريق معهم، وضعهم أمام الحقيقة التي لا تقبل التورية والإخفاء، واستخدم أسلوب التخويف والتحذير من عقاب الله سبحانه وتعالى وعذابه.

يستفيد الناصح المشفق، والداعية الفَطِن، من الفنون التي استخدمها مؤمن آل فرعون في دعوته وحواره مع مخالفيه، ويدرك أن الداعية الناجح هو الذي يجعل هدفه ومقصده استمالة القلوب لا تسجيل النقاط على الخصم، ويصبح انتفاع المنصوح بالنصيحة أحبّ إليه من لذة إفحام الخصم وإحراجه.

كن رفيقًا في نصحك: «ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك»، ولا تجامل على حساب الحق: «فاصدع بما تؤمر»، والموازنة في النصيحة بين الإقدام والرِّفق تدل على ذكاء الناصح، ورقي نصيحته وبقاء أثرها الطيب.

سر الثبات:

العقيدة الصادقة المتجذرة في نفس مؤمن آل فرعون أثمرت ثباتًا لا يتزعزع في وجه آلة البطش والإرهاب والإجرام، والإيمان الراسخ أنتج شجاعةً تاريخية في إعلاء كلمة الحق ونصرة المظلوم دون خوف من عواقب هذا الفعل، حتى أصبح مؤمن آل فرعون قدوةً للدعاة المخلصين، ونبراسًا للمصلحين المؤثرين.

ختم مؤمن آل فرعون جولاته الحوارية مع قومه بتفويض أمره لله وحده لا شريك له فقال: «فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله»، هذا التفويض هو سر قوته وثباته ورباطة جأشه، السِرُّ الذي جعله يقف شامخًا أمام فرعون وملئه ليُسمعهم كلمة الحق التي عطّلت دوران عجلة طغيانهم، وأربكت مخططاتهم التي كانت تستهدف النيل من موسى عليه السلام، وهو السبب الذي حفظه الله تعالى به منهم ومن مكرهم «فوقاه الله سيئات ما مكروا».

إن التوكل على الله تعالى هو سر ثبات المؤمنين إذا ادلهمت الخطوب، واشتدت الفتن، وبلغت القلوب الحناجر، وهو خير زاد يتزود به المسلم في مواجهة مصاعب الحياة وكَبَدِها وأحداثها المزعجة، فإذا علمتَ بأن الموت والحياة، والنفع والضر، والمرض والشفاء، والرزق والتوفيق، والمنع والعطاء، بيد الله تعالى وحده لا شريك له، فستتبدَّد أوهام المخاوف من غيره سبحانه، وسيتلاشى القلق من حياتك، وستنعم بحياة هادئة هانئة، لا ينغصها الخوف من عدو، ولا يعكرها القلق من مرض، ولا يفسدها مطاردة

الأرزاق، فالمتوكل على الله تعالى يعلم أن الأجل محتوم، والرزق مكتوب، وأن الأمور كلها بيد الله تعالى وحده لا شريك له، فلا يطمع بحرام، ولا يجزع لمصيبة، ولا يفزع من عدو، ولا يقلق من مستقبل، فقد فوَّضَ أمره كله لله تعالى.

قصة ابنيْ آدم

سورة المائدة من الآية: ((27 - 31))

داء الأمم:

الله تبارك وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو على الناس نبأ ابني آدم في سورة المائدة لِما فيها من العبر والعظات والفوائد والمواقف.

هذه القصة التي تحكي لنا أول جريمة وقعت في الأرض. الجريمة الأولى التي كانت سنةً سيئةً لما سيتلوها من جرائم وإفساد في الأرض.

في هذه الجريمة قتلَ الأخ أخاه! ولكن لماذا قتله؟ وبأي ذنب أزهق روحه؟ وما السبب الذي دفعه إلى ارتكاب هذه الجريمة البشعة؟ إن ابن آدم القاتل أُصيب بداء عضال خطير قضى على مشاعر الأخوة في نفسه، وانتزع الرحمة من قلبه، وأطفأ نور الإيمان في وجهه، وأضرم نار الحقد والانتقام في صدره، إنه داء الحسد الذي أبعد العبد عن ربه، وأهلك الأولين والآخرين، وأفسد القلوب النقية، وقطّع أواصر المحبة بين الأشقاء والأرحام والأصدقاء، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: أول ذنب عُصي الله تعالى به في الأرض (الحسد). هذا الداء الخطير أعمى بصيرة ابن آدم القاتل عندما علم أن الله تعالى تقبَّل قربان أخيه، ولم يتقبل منه، فأقدم على قتل أخيه.

الحسد أصل المعاصي، وبوابة الكبائر، فبسببه يفقد الإنسان صوابه، ويجرد من إنسانيته، فيفسد في الأرض، ويقطع الأرحام،

ويسوغ لنفسه ارتكاب الذنوب والمعاصي، وفعل الكبائر. ويكفي الحسد مذمةً أن فيه سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى، فالحاسد يعترض على أقدار الله تعالى التي كتبها، وعلى ما أسدى به من النعم على عباده، ويتمنى زوال النعمة عن غيره.

احذرْ الحسد، واعتصم بالله سبحانه وتعالى، واستعذْ به من هذا الداء الخطير، فالله تبارك وتعالى الذي أمرنا أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم، أمرنا كذلك أن نستعيذ به من هذا الداء (الحسد)، تأمَّلْ سورة الفلق، وانظر إلى الشرور التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نستعيذ به منها في هذه السورة العظيمة، فستجد في نهاية هذه الشرور (ومن شر حاسد إذا حسد)، عندها ستعلم خطورة هذا الداء، وأهمية تطبيق وصية نبيك صلى الله عليه والسلام: لا تحاسدوا.

إنما يتقبل الله من المتقين:

جريمة القتل الأولى التي خَطَّ سطورها ابن آدم القاتل في سجلات التاريخ، كانت بدافع الحسد من حسد أخيه الذي تقبل الله تعالى منه ما قدّم من قربان، ولم يتقبل من القاتل.

قَدّمَ ابنا آدم قربانًا في تنافس لنيل رضا الله سبحانه وتعالى، فتقبَّل الله من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى نوع عمل كل منهما أو مادته أو صفته أو حجمه، ولكنه ذَكَرَ سبب القبول وهو: «إنما يتقبل الله من المتقين»، ليبين الله سبحانه وتعالى أن القبول لا يرتبط بحجم أو نوع ما يقدم

الإنسان من عمل صالح وطاعة، ولكن المقياس الحقيقي لقبول الأعمال هو بما وَقَرَ في القلب من تقوى، دفعت الإنسان إلى تقديم هذا العمل وتلك القربة.

عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (سبق درهم مائة ألف درهم) قالوا: وكيف؟ قال: (كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها) رواه النسائي.

فلا تظن أن قبول العمل مرتبطٌ بنوعه أو حجمه أو مقداره، ولكن التقوى هي معيار قبول العمل، وهي التي تدفع صاحبها إلى فعل الطاعات، فكم من صدقة نراها بمنظورنا البشري القاصر صغيرة وقليلة، بينما هي عند الله تبارك وتعالى عظيمة، فشِقُّ التمرة تقي المتصدق نار جهنم كما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنها خرجت من نفس تقية مخلصة، وكم من إنسان تَقِيٍ يحتقره الناس بسبب تواضع مكانته الاجتماعية، أو ضعف حالته المادية، ولكنه عند الله سبحانه وتعالى ذو شأن عظيم، ومكانة رفيعة، ودعوة مُجابَة.

إذا أردت أن يتقبل الله تعالى عملك، فاحرصْ على أن تحقق شروط قبول العمل الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة من إخلاص لله سبحانه وتعالى، ومتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وقلب عامر بتقوى الله تعالى، وابحث عن صفات المتقين في كتاب الله تعالى، واجعلها منطلقًا لأفعالك وأقوالك، واسأله تعالى أن تكون من المتقين، وأن يتقبل أعمالك الصالحة.

إني أخاف الله:

أطلق ابن آدم القاتل تهديده السافر لأخيه قائلاً: «لأقتلنك»، فما كان من أخيه إلا أن ردَّ عليه ردًا رزينًا عاقلاً، أصبح شعارًا يرفعه المؤمنون المتقون الصادقون من بعده، قال في رده: «لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين»، هذا الشعار الخالد «إني أخاف الله رب العالمين» منع ابن آدم من مبادلة أخيه النية في ارتكاب جريمة القتل الشنيعة، فصار الخوف من الله سبحانه وتعالى حاجزًا يمنع الإنسان من ارتكاب المحرمات، ويحفظه من الوقوع في وحل المعاصي والشهوات.

عرّف ابن تيمية الخوف من الله تعالى تعريفًا جميلاً دقيقًا فقال: الخوف من الله تعالى هو الخوف الذي يحجزك عن محارم الله عَّز وجل. أحسنَ والله في تعريفه لهذا الشعور العظيم الذي يحول بين المرء ومعصية الله تعالى، فابن آدم المقتول لم يبادل أخاه القاتل الرغبة في القتل، ليس عجزًا ولا ضعفًا، ولكن الخوف من الله تعالى صدَّه عن ارتكاب هذه الجريمة البشعة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله)، إن هذا الخوف من الله تعالى الذي منعه من ارتكاب الفاحشة -على الرغم من توفر كل السبل المؤدية إليها- كان سببا في أن يَنْعَمَ بظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله.

اتَّخِذْ هـذا الشـعار «إنـي أخـاف الله» منهـج حيـاة، وارفعـه فـي وجـه الشـهوات التـي تـراودك، وواجـه بـه المعاصـي التـي تزينهـا لـك نفسـك الأمَّـارة بالسـوء، واجعلـه حصنًـا منيعًـا تتحصـن بـه إذا هاجمتـك الفتـن المُضِلَّـة.

عدّاد السيئات المستمر:

السيئات التي يُحاسب عليها الإنسان، هـي نتاج ذنوبه ومعصيته أوامر الله سبحانه وتعالى، فكيف إذا كانت هـذه الذنوب والمعاصي سببًا فـي إفسـاد الآخريـن، ومشـجعًا لهـم علـى الاقتـداء بهـا؟ فـي هـذه الحالـة يحمل الإنسـان المُذنِب ذنبه وذنب من اقتدى به وسار على طريق المعصيـة الـذي سنَّه.

جريمـة القتـل التـي ارتكبهـا ابـن آدم فـي حـق أخيـه كانـت أول جريمـة قتل فـي تاريخ البشـرية، ومـا تبعهـا مـن جرائـم القتـل وسـفك الدمـاء كان اقتـداءً بهـا، ولذلـك قـال رسـولنا الكريـم صلـى الله عليـه وسـلم: (مـا مـن نفـس تقتـل إلا كان علـى ابـن آدم الأول شـطر مـن دمهـا، لأنـه أول مـن سـنّ القتـل). يـا لـه مـن ذنـب كبيـر، وخسـران عظيـم، عندمـا يتحمـل الإنسـان وزره ووزر مـن اقتـدى بـه فـي الشـر!

وفـي زماننـا أصبـح نشـر المنكـر مُيَسَّـراً، فالصـورة والمقطـع والصـوت ينتشـرون انتشـار النـار فـي الهشـيم، والذنـب الـذي يقترفـه الإنسـان أصبـح بإمكانـه تصويـره وتوثيقه ونشـره، ومـا هـي إلا لحظات حتـى يصـل إلـى مشـارق الأرض ومغاربهـا بوجـود وسـائل التواصـل والاتصـالات الحديثـة، ولا يقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد فحسـب، بـل يتعـداه حتـى يبقـى أثـر شـره بعـد مـوت الإنسـان المُذنِـب.

احـذر أن تكـون داعيـةَ ضـلالٍ، تفسـد غيـرك، وتنشـر ذنبـك، وتكـون قـدوةً فـي الشـر، يقتـدي بـك المذنبـون المسـرفون علـى أنفسـهم، وتذكَّرْ أن (مـن دعـا إلـى ضلالـة كان عليـه مـن الإثـم مثـل آثـام مـن اتبعـه)، والموفـق مـن كان داعيًـا إلـى الخيـر، علمًـا للهـدى، قـدوةً فـي الطاعـات، فـالله تعالـى يكتـب الآثـار والأفعـال التـي يقتـدي بهـا النـاس، ويحاسـب الإنسـان عليهـا إن كانـت خيـرًا أو شـرًا: «إنـا نحـن نحيـي الموتـى ونكتـب مـا قدمـوا وآثارهـم وكل شـيء أحصينـاه فـي إمـام مبيـن».

راقِبْ أفعالـك، وزِنْ أعمالـك، وإيـاك وسُـنَّة السّـوء التـي تضاعـف الذنـوب، (ومـن سـنّ سُـنّة سـيئة، فعليـه وزرهـا ووزر مـن عمـل بهـا إلـى يـوم القيامـة).

قصة أم موسى عليه السلام
سورة القصص من الآية: ((7 – 13))

قصة أم موسى عليه السلام

إن وعد الله حق:

قال الله تعالى في سورة القصص: «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليَمّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين»، البلاغة القرآنية تتجلّى في هذه الآية الكريمة، فهي تحتوي على أمرين: أرضعيه وألقيه، ونَهْيَيْن: لا تخافي ولا تحزني، وبشارتيْن: إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، يا له من أسلوبٍ بديعٍ يبين لنا أنَّ عاقبة الالتزام بأوامر الله عزَّ وجل بشاراتٌ تُنسي الإنسان ما مَرَّ به من هموم وأحزان.

في الوقت الذي كان فرعون يقتل فيه كل مولود ذَكَرٍ خشيةً على مُلكه، أوحى الله تبارك وتعالى إلى أم موسى وَحْيَ إلهام وإرشاد بأن تُرضع ولدها، وتُلقيه في اليمِّ ليحفظه الله تبارك وتعالى من فرعون وملئه.

سبحانك يا رب، أوحى إليها بأن ترضعه لحكمة بليغة تبينت لاحقًا، عندما رفض موسى الرضاعة من أي امرأة أخرى غير أمه، وأمرها بأن تلقيَه في اليَمِّ وسط النهر، والله تبارك وتعالى يحفظ الرضيع موسى عليه السلام، ويُسيِّره إلى مصدر الخطورة الذي كانت أمه تخشى عليه منه، فيستقر في قصر فرعون وبين جنوده وحرسه الذين كانوا يطاردون كل مولود ليقتلوه، ويتلقّى الرعاية في قصر فرعون، ويجمعه الله تعالى بأمه هناك، ثم بعد

ذلك يصبح نبيًا مرسلاً، ويواجه فرعون وجنده، ويجعله الله تعالى سببًا في هلاك فرعون.

بحفظ الله تعالى الحفيظ، يتحول اليَمُّ من تابوت تتقاذفه الرياح والأمواج إلى ملجأ آمن ينام فيه موسى عليه السلام حتى يصل إلى وجهته بسلام، وبحكمة الله تعالى العليم الحكيم، يصبح قصر الطاغية فرعون مسكنًا ومقرًا يتلقّى فيه موسى عليه السلام أجود أنواع الرعاية والاهتمام، وبقدرة الله تعالى القدير، يجمع الله تعالى بين موسى وأمه في قصر الطاغية لترضعه وترعاه وتفرح به.

هل تُفَكِّرُ بعد ذلك في ضِيق النفق الذي تعيش فيه؟ وهل تعدُّ ما ألمَّ بك من مصاعب ومصائب من المستحيلات؟ توكَّلْ على الحفيظ العليم القدير الحكيم، وارضَ بقضائه وقَدَرِه، واطلب منه ما تراه بمنظورك البشري القاصر مستحيلاً، ثم انتظر هبوب رياح البشائر.

قرة العين:

التقط آل فرعون موسى عليه السلام وأخرجوه من اليمِّ، ورَقَّ له قلب امرأة فرعون التي لم تُرزق بالأولاد، وقالت: «قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا»، فكافأ الله تبارك وتعالى امرأة فرعون، وجعل موسى عليه السلام قرةَ عينٍ لها كما أرادتْ وتمنَّتْ، فأصبح ذلك الرضيع موسى عليه السلام بمنزلة الولد لامرأة فرعون الصالحة، وتَحَقَّق وعد الله تعالى «وجاعلوه من المرسلين»، وأصبح موسى عليه السلام نبيًا رسولاً، وتُسارِع

الفاضلة الصالحة امرأة فرعون إلى الإيمان بما جاء به، ويهديها الله تعالى بموسى عليه السلام، ويُنَجِّيها من فرعون وعمله، فله الحمد والفضل على أن جعل موسى قرةَ عينٍ لهذه المرأة الصالحة.

وعلى الجانب الآخر أم موسى عليه السلام التي سَلَّمَتْ لأمر ربها وتوكّلتْ عليه، وألقتْ رضيعها في اليَمّ كما أُمرت، أتاها العطاء الربّاني «كي تقر عينها ولا تحزن»، وارتسمت ابتسامة الفرح على وجهها، وغادر الحزن قلبها، وعاد الرضيع موسى عليه السلام إلى حضن أمه، ونجّاه الله تعالى من القوم الظالمين.

الإنسان يتمنّى أن يجعل الله تعالى من ذريته قرة عين له، يفخر بهم في الدنيا، ويجني ثمرة صلاحهم في الآخرة، وهذه الأمنية يحرص عباد الرحمن على أن يضمنوها في دعائهم كما جاء في سورة الفرقان «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين»، ومن قصة أم موسى نتعلم أن الانقياد لأوامر الله تعالى، وصِدْقَ التوكل عليه، من أهم الأسباب التي تجعل الأبناء قرة أعين لآبائهم وأمهاتهم ومَن له حَقٌّ عليهم.

قلبُ الأم:

قلب أم موسى عليه السلام الممتلئ حبًا وخوفًا على موسى من نيَّةِ فرعون وملئه التخلص من الأطفال الذكور، هو نفسه القلب الذي تَلَقّى أوامر الله تبارك وتعالى بالقبول والانقياد والاستسلام والتنفيذ، وهو القلب الذي أَحْسَنَ الظن بربه تبارك وتعالى،

وامتـلأ سـعادةً وفرحًـا وسـرورًا عندمـا تحقَّق الوعـد الربّانـي الحـق.

قلـب أم موسـى كان حزينًـا علـى مفارقـة ولدهـا، وأصبـح فارغًـا مـن جميـع الأمـور الدنيويـة إلا مـن حُـبٍّ موسـى عليـه السـلام، ولكـن اللّه تبـارك وتعالـى ثبَّـتَ قلبهـا، وربـط عليـه، وأنـزل عليـه السـكينة والطمأنينـة فـي الوقـت الحـرج، فـازداد إيمانهـا، واطمـأن قلبهـا، ورضيـت بأمـر ربهـا، فكانـت عاقبـة هـذا القلـب فرحًـا وسـرورًا بالبشـائر الربانيـة.

قلـوب الأمهـات أشـجار وارفـة الظـلال يسـتظل بهـا الأبنـاء مـن لهيـب الحيـاة، ونوافـذ أمـل يطلّـون مـن خلالهـا علـى مسـتقبلهم المشـرق، وبلسـم يُلَطِّـفُ الجـروح التـي خلّفتهـا معـارك الحيـاة.

هـذه القلـوب الكبيـرة فـي عطائهـا وحبهـا وتضحيتهـا، الرقيقـة فـي مشـاعرها وإحساسـاتها وعواطفهـا، تحتـاج إلـى عنايـة خاصـة ممـن بذلـتْ وأعطـتْ وضحّـتْ مـن أجلهـم، فواجـب الأبنـاء معاملتهـا برِفْـقٍ وبِـرٍّ وإحسـان وطاعـة، وإسـعادها بالصـلاح والعطـاء والدعـاء، فهنيئًـا لمـن وفَّقـه اللّه تعالـى مـن الأبنـاء لـردِّ جـزء مـن الجميـل إلـى هـذه القلـوب الكبيـرة.

قصة موسى عليه السلام مع فتاتيْ مدين
سورة القصص من الآية: ((22 - 28))

الطريق إلى محبة الله تعالى:

خرج نبي الله موسى عليه السلام من مصر لينجوَ بنفسه من كيد فرعون وملئه الذين كانوا يريدون قتله، فتوجَّهَ إلى مدين، وهي مدينة تقع جنوبي فلسطين، وفي طريقه مَرَّ بمكان فيه ماء، وشاهد منظرًا غريبًا أمامه، حيث وجد امرأتين تذودان غنمهما عن حياض الناس، فبادر عليه السلام إلى سؤالهما قبل أن يُصْدِرَ حكمًا أو يتَّخذَ موقفًا تجاه هذا المشهد الماثل أمام عينيه، فقال: «ما خطبكما»، فجاءت الإجابة التي استدعت خِصال النَّخوة والشَّهامة، التي تفيض بها نفسه الطاهرة، «قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير»، هنا لم يُتْبِعْ موسى عليه السلام سؤاله الأول بأسئلة أخرى، ولم ينتظر منهما المزيد من التوضيح، ولم يطلب رأيهما في السقاية لهما أم لا، ولكن التعبير القرآني كان واضحًا ومباشرًا: «فسقى لهما ثم تولّى إلى الظل»، بادرَ بفعل الخيرات، ومدَّ يد المساعدة للفتاتين، ولم ينتظر كلمة شكر، أو مكافأةً على صنيعه، ولكنه أنجز مهمته التطوعية، ثم تولّى إلى الظل.

المسارعة إلى فعل الخيرات، ومدِّ يد العون إلى المحتاجين، وإغاثة الملهوفين، ومساعدة الناس في قضاء حوائجهم، من صفات الأنبياء عليهم السلام والصالحين، فرسولنا -صلى الله عليه وسلم- وضَّحَ لنا المنزلة العظيمة التي يتبوؤها مَن يسعى

فـي قضـاء حوائـج النـاس، وهـي الفـوز بمحبـة الله تعالـى كمـا قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم: (أحـب النـاس إلـى الله أنفعهـم للنـاس)، يـا لـه مـن شـرف عظيـم، ومكانـة رفيعـة، ينالهـا ذلـك الإنسـان الـذي تعدَّى نفعـه للغيـر، وأصبـح اسـمه مقترنًـا بفعـل الخيـرات وبـذل المنفعـة للنـاس، ورسـم الابتسـامة علـى الوجـوه الحزينـة، وإدخـال السـرور علـى القلـوب المحرومـة، وزرع الأمـل فـي النفـوس المحبطـة، لتثمـر فرحًـا وسـعادةً وتفـاؤلًا.

احـرص علـى أن تكـون يـد عطـاء تمحـو آثـار الحرمـان، وبلسـمًا يـداوي جـروح الحاجـة والفقـر، وشـعاع أمـل للمحتاجيـن والملهوفيـن والمنكوبيـن، وعنـوان فخـر لدينـك وأمتـك ووطنـك وأهلـك، ولا تنتظـر مكافـأة دنيويـة، ولا كلمـة شـكر علـى مـا قدّمـتَ، واجعـل معروفـك خالصًـا لوجـه الله سـبحانه وتعالـى.

خلق يقود إلى الجنة:

اسـتوقف نبـي الله موسـى عليـه السـلام مشـهد الفتاتيْـن اللتيـن امتنعتـا عـن السـقاية تجنبًـا لمزاحمـة الرجـال، هـذا الموقـف العظيـم مـن الفتاتيْـن يـدل علـى اتصافهمـا بصفـة عظيمـة، وخُلُـق راقٍ، وهـي صفـة الحيـاء التـي منعتهمـا عـن مزاحمـة الرجـال، وجعلـت مـن تصرفهمـا هـذا علامـة مضيئـة تميزهمـا عـن غيرهمـا.

وتتوالـى الأمثلـة فـي هـذه القصـة التـي تـدل علـى تحلّـي الفتاتيْـن بهـذا الخُلُـقِ الرفيـع، وذلـك عندمـا سـألهما موسـى عليـه السـلام سـؤالًا محـددًا دون مقدمـات «مـا خطبكمـا»، قالتـا بـكل أدب وحيـاء

وعِفَّـة ووقـار: «لا نسـقي حتـى يصـدر الرعـاء وأبونـا شـيخ كبيـر»، إجابـة بليغـة واضحـة بعيـدة عـن التبسـط والخضـوع فـي القـول، وتخلـو مـن المقدمـات غيـر الضروريـة.

ويتَابع الوصـف القرآنـي الرائع لإحـدى الفتاتيْن عندما عادت إلى موسـى عليـه السـلام لتخبـره بـأن أباهـا يريد أن يكافئـه علـى صنيعه الطيب ووقفتـه المشـهودة مـع ابنتيـه، فوصفهـا وصفًـا عجيبًـا ليوضـح لنـا بـأن الحيـاء لا يقتصـر علـى لبـاس المـرأة أو حديثهـا: «فجاءتـه إحداهمـا تمشـي علـى اسـتحياء»، لـم يتميـز مشـيها إليـه بسـرعة أو بطء أو تعثّـر أو أي حالـة مـن الحـالات المصاحبـة لمشـي الإنسـان، بل كان مشـيًا مكتسيًا حلـة الحيـاء التـي زادتـه وقـارًا واحترامًـا، هـذا الحيـاء الـذي لاحظـه موسـى عليـه السـلام فـي التصرفـات والـكلام والمشـي، شـجَّعه علـى الـزواج مـن إحـدى الفتاتيْـن.

الحيـاء فـي الدنيـا زينـةٌ لمـن يتحلّى بـه، ودليل وقار ورُقِي الشـخص الـذي يتصـف بـه، سـواء كان رجـلاً أو امـرأة، وفـي الآخـرة سـبب مـن أسـباب نيـل رضـوان الله تبـارك وتعالـى، ودخـول جناتـه، فالنبـي صلـى الله عليـه وسـلم قـال فـي الحديـث الـذي رواه مسـلم: (الحيـاء شـعبة مـن الإيمـان)، وقـال عليـه الصـلاة والسـلام فـي الحديـث الـذي رواه الترمـذي وصححـه الألبانـي: (الحيـاء مـن الإيمـان، والإيمـان فـي الجنـة).

الموفـق مـن اتصـف بالحيـاء فـي أفعالـه وأقوالـه وتعاملاتـه، وجعله أصـلًا مـن أصـول تربيـة النفـس والأبنـاء والبنـات، فـإذا صـار الحيـاء شـعارًا للشـاب والفتـاة، سـيظهر أثـره فـي الفعـل والقـول والأخـلاق، وسـينعم صاحبـه بثمرتـه فـي الآخـرة، فالحيـاء لا يأتـي إلا بخيـر.

معيار الكفاءة:

تطلب إحدى الفتاتيْن من والدها أن يستأجر موسى عليه السلام، وقد بيّنت السبب الذي دعاها لأن تطلب مثل هذا الطلب قائلةً: «إن خير من استأجرت القوي الأمين»، لقد شاهدت قوة موسى عليه السلام عندما أنجز مهمة السقاية لهما بإتقان، ولاحظت أمانته عندما جعل مكارم الأخلاق هي عنوان التعامل مع الفتاتيْن.

القوة والأمانة صفتان عظيمتان يجب توافرهما في كل من يتولّى مسؤولية عامة أو خاصة، فالقوة تعني التوكل على الله تعالى، ثم الإقدام على تنفيذ العمل واتخاذ القرارات المناسبة، وإتقان العمل المطلوب أو المسؤولية المكلف بها، والقدرة على حسم القرارات المصيرية دون تردد أو تهاون، وقد جاء تبيان فضل هذه الصفة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

وأما الأمانة فهي التي تحفظ للناس حقوقهم، وتصونها من الضياع والتلاعب والإهدار، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بردّ الأمانات إلى أهلها: «وردوا الأمانات إلى أهلها»، ولا يحرص على ذلك إلا مَن كان أمينًا في نفسه، مؤديًا الحقوق التي اؤتمن عليها، وقد كانت الأمانة صفة تميَّزَ بها رسولنا الكريم قبل البعثة.

المقابلات الشخصية والاختبارات الاستكشافية التي يخضع لها المُقبلون على تولّي المسؤوليات أو الوظائف العامة، يجب ألا

تخرج الأسئلة والمحاور والبنود التقييمية فيهما عن التثبت من وجود هاتين الصفتين المهمتين: (القوة – الأمانة) في الشخص المتقدم، فبالقوة يتحقق الإنجاز، وبالأمانة تُصان الحقوق.

حوار الكبار:

بعد أن جاء موسى عليه السلام إلى والد الفتاتيْن، دار بينهما حوار اتَّسم بالرُّقي والاحترام المتبادل، بدأ الحوار الراقي بينهما عندما قَصَّ موسى عليه السلام على والد الفتاتيْن ما تعرَّضَ له من إيذاء في بلده، ومحاولة لقتله على يد فرعون وملئه، فردَّ عليه والد الفتاتيْن ردًا يبث الأمان والطمأنينة والسكينة في نفسه، فقال له: «لا تَخَفْ نجوت من القوم الظالمين»، وبث الطمأنينة في النفوس وخاصة في وقت الأزمات منهج ربّاني سار عليه الأنبياء والمصلحون، وكم من شخص يمر بضائقة، أثقلت كاهله الهموم والأحزان، يحتاج إلى كلمات طيبة تنقله من بؤس واقعه الذي يعيشه، إلى فضاء التفاؤل والأمل والرجاء، فغَرْسُ حسن الظن بالله تعالى في النفوس هي مهمة الدعاة والمصلحين على امتداد العصور.

ثم عَرَضَ والد الفتاتيْن على موسى الزواج من إحدى ابنتيْه مقابل أن يكون أجيرًا عنده مدة ثماني سنين، وأنهى العَرْضَ بقوله: «وما أريد أن أشق عليك»، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة الرِّفْقِ بالعمال والمرؤوسين، فما كان الرِّفْقُ في شيء إلا زانه، فالرحمة بالعمال والموظفين الذين تتولى مسؤوليتهم، وعدم تحميلهم ما

لا يطيقون، وحسن معاملتهم، من صفات المؤمن الحريص على إرضاء الله سبحانه تعالى.

ويختم نبي الله موسى عليه السلام هذا الحوار الراقي بتأكيد الالتزام بقيمتيْن عظيمتيْن: الأولى قيمة الوفاء في قوله: «ذلك بيني وبينك»، فالوفاء بالعهود قيمة عظيمة لا يتقنها إلا الأتقياء الكرام، والقيمة الثانية هي من أعلى المراتب في ديننا الحنيف، وهي قيمة الإحسان، وتمثّلت في قوله: «والله على ما نقول وكيل». هنا جعل موسى عليه السلام مراقبة الله عز وجل أكبر ضامن لهذا الاتفاق بينه وبين والد الفتاتيْن، فمن يستشعر مراقبة الله عز وجل له في أفعاله وأقواله وعباداته ومعاملاته، سيحرص على طاعته، والابتعاد عن معصيته، لأنه يعلم تمام العلم أن الله تبارك وتعالى سيحاسبه على أفعاله وأقواله وتصرفاته.

قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح
سورة الكهف من الآية: ((60 - 82))

قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح

حلية طالب العلم:

إن للعلم مكانة عظيمة، فهو ينتشل المجتمعات من مستنقعات الجهل والتخلف، ويرتقي بها في فضاء الحضارة والتقدم، وللعلم آداب تُزَيِّن مَن يتحلّى بها.

وفي قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح في سورة الكهف، نجد أن نبي الله موسى عليه السلام قد عقد العزم على مكابدة عناء السفر، وتحمُّلِ المشقة من أجل أن يلتقي بالعبد الصالح الذي آتاه الله تبارك وتعالى من لدنه علمًا: «وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا»، الهِمَّة العالية في تحصيل العلم عند موسى عليه السلام دفعته إلى هذه الرحلة الطويلة، وصار الترحال من أجل طلب العلم ديدن العلماء والباحثين وطلبة العلم وأصحاب الهمم العالية، فنجد من سلفنا الصالح من كان يضرب أكباد الإبل متنقلًا من بلد إلى آخر من أجل التحقّق من حديث، أو الالتقاء بعالم من العلماء.

وفي هذه القصة قرر موسى عليه السلام السفر من أجل طلب العلم، وقدّم ذلك على دعوة قومه وتعليمهم، لأن الحياة عطاء وتزود، فمن لا يملك الزاد المناسب فلن يتمكن من إمداد غيره، فالتزوُّد من العلوم والمعارف، واكتساب المهارات، وتطوير الذات وتنميتها، من أهم الأسباب المُعينة على التعليم والدعوة والوعظ والتأثير.

ونستخلص من هذه القصة أن الله تبارك وتعالى فوق كل ذي علم عليم، وأن علم الإنسان هو مما علّمه الله تبارك وتعالى: «علمناه من لدنا علمًا»، فواجب على الإنسان ألا يغترَّ بعلمه، وأن يؤمن بأن الله تعالى هو العليم الحكيم، وأن الإنسان مهما بلغ من المعرفة والدرجة العلمية يظل علمه قاصرًا، فنبي الله موسى من أولي العزم من الرسل، وذهب لتلقي العلم ممن آتاه الله علمًا غاب عنه.

ومن الفوائد التي يلتقطها طالب العلم الحذق: وجوب احترام المعلم، فالمعلم له مكانة يجب أن تُحفظ، وتقدير يستحق أن يناله. تأمّلْ خطاب موسى عليه السلام مع العبد الصالح: «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدًا»، افتتح خطابه باستئذان يليق بمكانة المعلم، ثم أتبعه بلطف الاعتراف بفضل المعلم، والطلب منه أن يتعلم منه.

الفريضة الغائبة:

موسى عليه السلام وصل إلى مبتغاه بعد رحلة طويلة، والتقى العبد الصالح لكي ينهل من العلوم التي آتاه الله تعالى إياها، فاشترط عليه ألا يسأله عن شيء حتى يُحدِّثه عن الحكمة التي دفعته إلى هذه الأفعال، فوافق موسى عليه السلام.

رافقَ موسى عليه السلام العبد الصالح في رحلته بعد أن وافق على شرطه، وقد تخلّلت الرحلة بعض الأفعال التي قام بها العبد الصالح لحكمة لا يعلمها موسى عليه السلام، في ظاهرها الشر

والسوء، فما كان من نبي الله موسى عليه السلام الذي يمتلئ قلبه بمشاعر الغيرة على حرمات الله تعالى، وبغض الظلم، والنفور من الخطأ، إلا أن طبَّق منهج الأنبياء والمرسلين والمصلحين، ورفع صوت الإنكار عاليا احتجاجًا على ما ظنَّه منكرًا وظلمًا في ظاهره، تمثَّل في خرق السفينة، وقتل الغلام الصغير، فالمصلحون يشمئزون من المنكر، ولا يقبلون عقد اتفاقيات التطبيع معه لكي لا تألف نفوسهم الطاهرة هذا المنكر.

إنكار المنكر فريضة عظيمة، وفضيلة جليلة، ميَّزَ الله تبارك وتعالى بها هذه الأمة عن غيرها من الأمم، فقال عزَّ من قائل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»، وذمَّ بني إسرائيل، ولعنهم بسبب تعطيلهم هذه الفريضة العظيمة: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه»، بل جعله تعالى من شروط التمكين في الأرض لعباده الصالحين فقال: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر».

كم من منكر تَحَطَّمَ على صخرة الإنكار، وكم من بلاء وعقاب صرفه الله تعالى عن عباده بسبب إحيائهم هذه الفريضة العظيمة، والشعيرة المهمة، فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم صمام أمان المجتمعات.

وإنكار المنكر درجات، فموسى عليه السلام نعت خرق السفينة بالإمر، وهو الشيء العظيم، وأطلق على قتل الغلام الصغير وصفا يليق بهذا الفعل «شيئًا نكرًا»، فاحرص على أن يكون إنكارك للمنكرات مناسبا ومتوافقا مع درجة هذا المنكر،

ولا تجعل من حجم المنكر أو سطوة مرتكبه حاجزا أمام فريضة الإنكار، فإنكار المنكر مراتب كما جاء في الحديث: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)، فلا تحرم نفسك شرف المشاركة في إنكار المنكر، وإن اقتصر إنكارك على أضعف الإيمان.

اللُّطف الخفي:

استغرب نبي الله تعالى موسى عليه السلام في رحلته مع العبد الصالح التي خصصها لطلب العلم من بعض الأفعال التي قام بها العبد الصالح، وكان في ظاهرها الشر مثل: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. نظر موسى عليه السلام إلى هذه الأفعال نظرة بشرية خالصة، ولم تتعرّف الحكمة من هذه التصرفات، فسارعَ إلى الإنكار على فاعلها، وهنا فارقه العبد الصالح، وأخبره بالحكمة التي كانت مخفيةً عنه، والتدبير الإلهي لهذه الأمور، فخَرْقُ السفينة كان سببًا لأن يمتنع الملك عن أخذها، فبقيت عند أهلها لينتفعوا بها، وقَتْلُ الغلام قطعَ الطريق على جريمة عقوق بشعة كان سيرتكبها بحق والديه، فأبدلهما ربهما خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمًا، والجدار الذي أقامه حَفِظَ حق اليتيمَيْن اللذين كان أبوهما صالحًا.

الأقدار المؤلمة تخفي بشائر عظيمة، وإن كثيرًا من الأمور التي يكرهها الإنسان وينظر إليها بمنظوره البشري أنها شرٌّ محضٌ قد أصابه، ومصيبة عظمى قضت على آماله في هذه

الحياة، يكتشف فيما بعد أنها تحمل في طيّاتها الخير العظيم، والآمال الكبيرة، فكم من مصيبة ألمَّتْ بصاحبها فصبر عليها ولم يجزع، فكانت مقدمة للفرج والفرح، وكم من منحٍ وُلِدَتْ من رحم المحن، وكم من منعٍ كان بوابةً للعطاء، وكم من ابتلاء فتح صفحة جديدة للتمكين، وسبحان القائل: «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم».

لا تحزن على أمر فاتك، ولا تجزع على شيء فقدته، وتأمَّلْ هذه القصة العظيمة، وانظر إلى حدث خَرْقِ السفينة بِتَمَعُّنٍ، فقد تكون سفينتك في هذه الحياة وظيفةً فقدتها، أو تجارةً خسرتها، أو مالًا لم تتحصل عليه، أو عزيزًا فارقته، ولله درُّ القائل:

وكــم لله من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي

وكم أمر تساء به صباحًا ... وتأتيك الــمسرة بالعشي

واعلم أن قضاء الله سبحانه وتعالى خيرٌ للإنسان، فارضَ به، وأحسِنِ الظن بالله عز وجل، وأكثِرْ من قول: اللهم صبرًا على ما لم نحط به علمًا.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون
سورة الشعراء الآية: ((10 - 68))

قصة موسى عليه السلام مع فرعون

الاستعداد للمهمة العظيمة:

ذهب نبي الله موسى إلى مدين وأقام عندهم سنين من عمره، وجاءه التكليف الرباني العظيم بالرسالة «وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين»، فأصبح هَمُّ موسى عليه السلام النجاح في أداء هذه الأمانة العظيمة على أكمل وجه، فاستعدَّ لها استعدادًا جيدًا، بدأه بالتبرؤ من حَوْلِهِ وقوته وقدراته وإمكانياته وخبراته، والاستعانة بالله سبحانه وتعالى، والطلب منه سبحانه أن يَمُدَّهُ بالأسباب التي تساعده على النجاح في مهمته، فقال: «رب إني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون».

عَرَفَ موسى عليه السلام أن هذه المهمة الكبيرة تحتاج صدرًا منشرحًا يَتَّسِعُ لحمل أعباء هذه الرسالة، ولا يضيق بالهجمات المتوقعة من أعدائها، ولسانًا بليغًا طليقًا يُفَنِّدُ ادّعاءات أهل الزيغ والضلال، وسندًا قويًا يشد عضده، ويُقوي عزيمته، ويعينه على أداء مهمته، فسأل الله تعالى ذلك، واستجاب الله تبارك وتعالى له: «قد أوتيت سؤلك يا موسى»، فشرح صدره كما طلب في دعائه، وأصبح صدر موسى رحبًا مستعدًّا لتلقّي افتراءات الأعداء واحتوائها، وساكنًا مطمئنًا عند مواجهة الأحداث العصيبة، وجعل أخاه هارون نبيًا، وأرسله معه ليشد من أزره، ويشاركه حَمْلَ أعباء الرسالة.

خَوْضُ المعارك يتطلب إعداد العدة والعتاد، ومَن أراد نزول البحر عليه إتقان السباحة قبل ذلك، وهكذا المهمات الكبيرة، والمسؤوليات العظيمة، لا يتصدَّى لها الإنسان إلا بعد الاستعداد الجيد، ولا يكون الاستعداد جيدًا إلا بعد تعرّف طبيعة المهمة، وأهم متطلباتها، والصفات الشخصية للمكلف بها، وخيرُ ما يستعين به المرء على أداء أي مهمة اللجوء إلى الله عز وجل، والاستعانة به، والإلحاح في الدعاء، ثم الأخذ بالأسباب المادية المعينة على أداء مهمته.

الحُجَّة في مواجهة التحقير والتهديد:

توجَّهَ موسى عليه السلام إلى فرعون ناصحًا ومُبلغًا دعوة الله عز وجل ونذيرًا، فدعاه إلى التوحيد، وأمره برفع الظلم عن بني إسرائيل، فما كان من فرعون الطاغية الظالم المتكبر إلا أن واجه دعوة الحكمة والموعظة الحسنة التي جاء بها موسى بسيلٍ من التحقير والافتراءات، فبدأ يَمُنُّ على موسى: «ألم نُربِّكَ فينا وليدًا ولبثت فينا من عمرك سنين»، ويُذكِّره بحادثة القتل: «وفعلت فعلتك التي فعلت»، ثم انتقل إلى تحقيره واتهامه بالجنون: «قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون»، ثم ختم حديثه بإعلان هزيمته في الحوار، فهدَّدَ موسى عليه السلام: «قال لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين».

لم يُعطِ موسى عليه السلام فرعون فرصة أخذه إلى ساحة الجدال العقيم، ووضعه في موقع يدافع فيه عن نفسه، ويرد على اتهامات فرعون له، ولكنه ردَّ على تمنّن فرعون بتربيته في قصره بالقول: إن السبب في ذلك هو طغيان فرعون وظلمه وقتله مواليد بني إسرائيل، ولا فضل لفرعون في ذلك، بل هو نتيجة طبيعية لإجرامه، ودحضَ تهمة القتل بأنه فعلها واستغفر ربه تعالى فغفر له، ثم انتقل عليه السلام إلى موقع الهجوم، وبدأ بالدعوة إلى توحيد رب العالمين، وعزّزَ دعوته بالأدلة الكونية الناطقة بوحدانية الله رب العالمين، وأقام الحجة على فرعون وقومه، فلم يفت التحقير في عضده، ولم يرهبه التهديد والوعيد بالسجن، بل مضى يكمل دعوته بحوار اتسم بالحكمة والهدوء، وتميَّزَ بالأدلة والحجج الدامغة.

صاحب الدعوة والرسالة الهادفة قد يتعرَّض لكثير من المعوِّقات التي تحاول أن تجره إلى ساحة من المعارك العبثية التي تمنعه من تحقيق أهدافه، وتتنوع هذه المعوِّقات، بين إشغال صاحب الرسالة بالدفاع عن نفسه من خلال استهدافه بحملة من السب والشتم وتسليط السفهاء الذين يطلقون الافتراءات والأكاذيب عليه، أو ترهيبه وتهديده في محاولة لثنيه عن السير في طريقه، وهذه الاتهامات والتهديدات تشير إلى حالة الإفلاس الفكري والحواري التي يعاني منها الخصوم، والواجب تجاهلها، وعدم هدر الجهد والوقت في مواجهتها، ويُعَدُّ المضي قدمًا في طريق تحقيق الأهداف هو أبلغ رد على هذه المعوِّقات.

البطش حيلة الضعيف:

فشل فرعون في الرد على موسى عليه السلام، وأقام موسى الحجة عليه، وحاصر طغيانه بالأدلة الدامغة، وأذلَّ كبرياءه بالمعجزات الخارقة، وأظهر ضعفه وعجزه أمام الناس، فاهتز عرش فرعون، وسقطت أسطورة الخوف التي بناها سنين طويلة. فخشيَ على ملكه من الزوال، وقرر استعمال سلاح التهديد والتخويف، فلم يجدِ نفعًا، بل ازداد موسى عليه السلام ثباتًا، والتَفَّ حوله الكثير، وموقف السحرة خيرُ شاهد على سقوط أسطورة الخوف الفرعونية.

لجأ فرعون إلى استخدام آخر سلاح يملكه في مواجهة المَدِّ الإيماني المتصاعد، فقام بتحريض الناس على بني إسرائيل: «إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لجميع حاذرون»، فبدأ بتعبئة الرأي العام لحشد أنصاره، وتشجيعهم على خوض مواجهة مصيرية مع موسى ومَن معه من بني إسرائيل، فجمع جيشًا عظيمًا تقوده المصلحة المشتركة المزعومة التي تتمثل في القضاء على موسى عليه السلام ومن آمن معه من بني إسرائيل، فخرج فرعون وجيشه خلف قوم موسى بقلوب تمتلئ غيظًا وحقدًا، وقد أعمتهم الرغبة في الانتقام والبطش بقوم موسى عن رؤية الحق الذي دعاهم موسى عليه السلام إليه.

استخدام القوة الغاشمة، والبطش بالمخالفين، والانتقام من الناصحين، علامات تدلُّ على الضعف والعجز والفشل، يلجأ إليها المعتدون الظالمون عند الهزيمة في ميادين الحوار والنقاش،

والعجز عن مقارعة الحُجَّةِ بالحُجَّة، لتكون غطاءً يستر ضعف حجتهم، وانعدام أدلتهم، وقلة حيلتهم، وفشلهم في إقناع الناس، وهذا المشهد يتكرر في كل زمان ومكان، وقد بيّنه الله تبارك وتعالى في أخبار الأمم السالفة.

معية الله عز وجل:

خرج قوم موسى عليه السلام وتبعهم فرعون وقومه فتراءى الجمعان، وفي هذا الموقف العصيب، قال أصحاب موسى بعد أن شاهدوا القوة التي جمعها فرعون وجيشه لسحقهم والقضاء عليهم: «إنا لمدركون»، فالمقاييس المادية تشير إلى تفوق فرعون وجيشه، وموازين القوى تُرَجِّحُ كَفَّةَ فرعون وجيشه، ولكن نبي الله موسى عليه السلام كان عنده يقين يخالف هذه النظرة البشرية القاصرة التي تهتم بالعدد والعتاد والقوة المادية، يقين ينطلق من إيمان راسخ بأن مَن نَصَرَ دين الله عز وجل فإن الله تعالى سينصره، ومن كان مع الله في حياته ملتزمًا بأوامره ونواهيه، كان الله تبارك وتعالى معه في شدته، فقال بكل ثقة: «إن معيَ ربي سيهدين»، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: «أن اضرب بعصاك البحر»، فانفلق البحر، ونجّى الله موسى وقومه، وأغرق فرعون وجيشه وجعلهم آية.

استشعار معية الله عز وجل لأوليائه تُسكِّن النفوس المضطربة، وتملأ القلب طمأنينةً، فلا مكان للخوف واليأس والقلق إذا استشعر العبد معية الله عز وجل في كل موقف يَمُرُّ به في حياته، فموسى

عليه السلام رأى خوف قومه، وسمع شكواهم «إنا لمدركون»، فأرسل رسالة اطمئنان لهم، تثبتهم في هذا الموقف الصعب، وتربط على قلوبهم عند مواجهة الطاغية فرعون وجنده، هذه الرسالة هي: استشعار معية الله عز وجل لأوليائه، هذه المعية التي حوّلت خوفهم أمناً، وأبدلت ضعفهم قوةً وتمكينًا، وردَّتْ كيد عدوهم في نحره، وهي المعية التي استشعرها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في الغار عندما خاطب أبابكر الصّدّيق قائلا ومطمئنًا: «لا تحزن إن الله معنا»، فأنزل الله تعالى عليه السكينة، وحفظه وصاحبه من مكر القوم الكافرين.

إن المتأمّلَ في كتاب الله عز وجل، يجد أن نَيْلَ شرف معية الله سبحانه وتعالى يتحقق للمسلم الذي يبذل الأسباب المؤدية إليها، فالله تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: «وأن الله مع المؤمنين»، «واعلموا أن الله مع المتقين»، «إن الله مع الصابرين»، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»، فالإيمان والتقوى والصبر والإحسان من صفات الصفوة الذين يشرفهم الله تعالى بمعيته الخاصة، فحريٌ بالمسلم أن يتَّصف بهذه الصفات، فيحرص على تحقيق الإيمان وزيادته بالطاعات، وأن يتقي الله عز وجل في أفعاله وأقواله، ويتحلّى بأنواع الصبر المأمور بها من صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على أقدار الله، وأن يكون محسنًا في عبادته، وذلك باستشعار مراقبة الله تعالى الدائمة له، فمَنْ أراد شرف المعية سلك طريقها، وبذل الأسباب المؤدية إليها.

قصة قوم سبأ

سورة سبأ من الآية: ((15 - 21))

قصة قوم سبأ

لئن شكرتم لأزيدنكم:

الله تبارك وتعالى وهب قوم سبأ الكثير من النِّعم والخيرات، وكانوا يعيشون في رغد ورخاء وأمن، وجعلهم الله تعالى آية لمن يأتي بعدهم من الأمم، وذَكَرَ قصتهم في كتابه الكريم في سورة سبأ، وبيّن مآلهم بعد النعيم الذي كانوا يعيشون فيه، وأوضح السبب الذي أدى بهم إلى هذه النهاية المحزنة، وهو إعراضهم وكفرهم بنعمة الله سبحانه وتعالى.

في بداية القصة قال تعالى: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية»، وفي نهاية القصة قال الله سبحانه وتعالى: «إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور»، تأمَّلِ الآية التي أراد الله تعالى أن نتعظ منها ونعتبر بها في هذه القصة، وهي الآية التي خصَّصَ صفتيْن من صفات المُتَّعظين منها: (الصبّار) و (الشَّكور).

قوم سبأ تبدَّلت أحوالهم، وزالت عنهم النعم التي كانوا يتمتعون بها، فأصبحت الجنتان العامرتان المزدهرتان جنتين ذواتي أكل خمط يابس، وحلَّ مكان الأمن الذي كانوا يعيشون في ظلاله خوف دفعهم إلى مفارقة ديارهم وأوطانهم، وهذا كله بسبب عدم شكرهم للمنعم سبحانه وتعالى.

الشكر سياج يحفظ الله تعالى به النعم من الزوال، ويزيدها بركة ونماءً، فالله تعالى بَيَّنَ لنا السبيل إلى حفظ النعم وزيادتها فقال: «لئن شكرتم لأزيدنكم».

ضرب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة لأمته في شكر الله تعالى على نعمه، فقد كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فتتعجب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وتسأله: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر؟ فيجيبها صلى الله عليه وسلم إجابة النبي العابد الشاكر الحامد فيقول: (أفلا أكون عبدًا شكورًا؟)، نعم إن العبد الشكور هو الذي يحرص على أن يقابل نعم الله تعالى عليه التي لا تُعد ولا تُحصى بالحمد والشكر والاعتراف والخضوع والدعاء والتضرع.

تعَرَّفْ على نعم الله تعالى عليك، واشكر المنعم عليها، وحافظ عليها، ولا تنتظر زوال هذه النعم حتى تَعْرِفَ قيمتها، فالعاقل الحصيف يعرف قَدْرَ النعم وقيمتها قبل زوالها وفقدها.

زوال النِّعم وفجاءة النقم:

في قصة قوم سبأ شاهدنا كيف تبدَّلتْ النعمة إلى نقمة، وتحوَّلَ الأمن الذي كانوا يعيشون في ظلاله إلى خوف، وكيف حَلَّ عليهم غضب الله سبحانه وتعالى بسبب كفرهم وإعراضهم وغرورهم وبطرهم.

روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتَحَوُّلِ عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك).

يعلّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف دعاءً عظيمًا يشمل خيري الدنيا والآخرة، هذا الدعاء فيه لجوء إلى الله تبارك وتعالى، وطلب إليه سبحانه أن يعيذك من أمور تضرك في دنياك وآخرتك، فتطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعيذك من زوال النعم، فنعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، أعظمها نعمة الإسلام والهداية، وتُحْفَظُ هذه النعم باللجوء إلى المُنعم وسؤاله أن يحفظها من الزوال كما جاء في الآية الكريمة: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا»، والله سبحانه وتعالى يستجيب إلى دعاء عبده، ويحفظ النعم من الزوال.

وفي دعاء النبي استعاذة من تَحَوُّلِ العافية، فالإنسان المعافى من الأمراض والأسقام ملك مُتَوَّجٌ بتاج الصحة، ولا يشعر الكثير بهذه النعمة العظيمة إلا إذا تفاجأ بنتيجة تحليل طبي، أو فقد عضوًا من أعضاء جسده، أو حاسة من حواسه لم يشعر بقيمتها بسببه إلفه لهذه النعمة العظيمة.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث يستعيذ بالله تعالى من فجاءة نقمته وجميع سخطه، فقد رأينا نتائج غضب الله تعالى على قوم سبأ عندما أرسل عليهم سيل العرم وبدّلَ أمنهم خوفًا، وعيشهم الرغيد إلى حياة التعب والضنك، فواجب على الإنسان أن يَفِرَّ من الآفات التي تُسخط الله سبحانه وتعالى وتغضبه مثل: الإعراض وكفر النعمة والظلم والمعاصي، ليتجنَّبَ عقاب الله سبحانه وتعالى.

تأمّلْ هذا الدعاء النبوي، واستشعر معانيه، واحرص عليه في صلاتك وفي مواطن إجابة الدعاء، واعمل على بذل الأسباب التي تجنبك غضب الله تعالى.

قصة يوسف عليه السلام

سورة يوسف من الآية: ((3 - 101))

سيجعل الله بعد عسر يسرًا:

قصة يوسف عليه السلام فيها تسلية لكل مُصاب، وبشارة لكل مُبتلى، وبارقة أمل لكل يائس، وجرعة تفاؤل لكل متشائم، إن بَيْنَ قول يوسف لأبيه: «يا أبت إني رأيت» وقوله: «يا أبت هذا تأويل رؤياي»، فصول من الألم والحزن والابتلاء التي كان عاقبتها الفرح والفرج من الله سبحانه وتعالى.

يوسف عليه السلام كان يعيش في بيئة تمتلئ بالحب والحنان، في كَنَفِ أبٍ محبٍ مشفقٍ عليه، لم يكن يعرف أن أقرب الناس إليه (إخوته) يحيكون مؤامرة ليبعدوه عن هذه البيئة التي يعيش فيها، وصلت إلى حد التفكير بقتله، واستقرَّتْ على إلقائه في غيابة الجب، ليبدأ فصلًا جديدًا من حياته بعيدًا عن والده الذي كان يحيطه بالحب والرعاية والعطف.

هذا الفصل الجديد من حياة يوسف عليه السلام بدأ بإلقائه في غيابة الجب، ولم ينتهِ ببيعه بثمنٍ بخسٍ، ولكن استمرتْ مشاهده بين إغراء مشجع على المعصية، واتهام باطل بجريمة عفَّتْ نفسه عن ارتكابها، وسِجْنٍ ظالم قضى فيه سنوات من عمره.

وكان لطف الله عز وجل، وتدبيره سبحانه وتعالى لعبده، يرافق يوسف في كل مرحلة من مراحل حياته، فالسيّارة يسارعون إلى إنقاذه وإخراجه من غيابة الجب، والعزيز يُكْرِمه في بيته، والنسوة

يشهدن شهادة الحق بعفته وبراءته، والملك يخرجه من السجن بعد تأويله لرؤياه، ثم يستخلصه لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، وإخوته يطلبون منه العفو، وتختم القصة باجتماعه بأبويه بعد فصول من المعاناة والابتلاء.

ثِقْ بتدبير الله تبارك وتعالى، واعلم أن كلَّ هَمٍّ سينجلي، وكلَّ حزن سينتهي، وكل بلاء سينقضي، وأن عاقبة المرض شفاء، وأن اليسر يزاحم العسر حتى يغلبه، وأن أشعة الأمل لا بد أن يأتي لها يوم لتبدد ظلام اليأس.

مشاعر أب:

يعقوب عليه السلام كان أبًا حنونًا مشفقًا محبًا لأبنائه، يحيطهم بالرعاية والحنان، واتضح ذلك حين ذهب له ابنه يوسف عليه السلام ليَقُصَّ عليه رؤياه، وازداد وضوحًا في إجابته على يوسف، وطلبه منه أن يكتم رؤياه عن إخوته، وتحذيره له من كيد الشيطان الذي يحرص على أن يوقع بينه وبين أخوته.

الحوار الذي دار بين إخوة يوسف ووالدهم يعقوب عليه السلام، يُبيِّن مقدار الحب والعطف الذي يتمتع به هذا الأب الحنون، فالحوار يكشف خوفه على يوسف، ورغبته في اجتماع أبنائه وفرحهم.

أخبار الفقد والحزن التي توالت على قلب يعقوب عليه السلام، أفقدته بصره، ولكنها لم تفقده ثقته المطلقة بفَرَجِ رَبِّه سبحانه وتعالى، فكان مستعينًا بالله عزَّ وجل عند كل مصيبة، مفوضًا

الأمـر إليـه، متـوكلًا عليـه، يرفـع شـكواه إليـه وحـده، يرجـوه رجـاء المضطـر أن يجمعـه بولديـه.

دموع يعقـوب الغاليـة التـي سُكِبَتْ علـى فقـد يوسـف حتـى ابيضت عينـاه مـن الحـزن، ورائحـة الفـرج التـي يشـتمُّها علـى بعـد آلاف الكيلومتـرات، ولوعـة الفـراق التـي اسـتعان بـالله تعالـى عليهـا، ثـم عودة البصـر إليـه بعـد أن أُلقِـي عليـه قميص يوسـف، وحـرارة الشـوق عنـد اللقـاء بيوسـف، مشـاهد تحكـي لنـا مشـاعر الأبـوة الصادقـة.

الأب سـند يتكـئ عليـه الأبنـاء عنـد عثراتهـم، وظِـلٌّ يحفظهـم مـن لهيـب التجـارب المريـرة فـي الحيـاة، وبلسـم يـداوي جـروح قلوبهـم. فهنيئـا لمَـن عَـرَفَ لـلأب مكانتـه، وحَفِـظَ لـه جميلـه، وبَـرَّهُ فـي حياتـه وبعـد مماتـه.

لا تيأس:

يعقـوب عليـه السـلام والـد يوسـف أدرك أن اليـأس عـدوٌّ يُهلـك الإنسـان إذا نجـح فـي التسـلل إلـى قلبـه، ويقتـل فيـه روح الأمـل، فاستعان بـالله سـبحانه وتعالـى، وصبـر علـى الابتـلاءات التـي تعـرَّض لهـا، وأَحْسَنَ الظـن بربـه عـز وجل، فلـم يجـد اليـأس مكانًـا فـي قلـب يعقـوب عليـه السـلام يسـتقرُّ فيـه، فأبـدل الله تعالـى حزنـه فرحًـا، وأعقـب العسـر الـذي عاشـه يسـرًا وفرجًـا.

عندمـا فقـد يعقـوب ابنـه يوسـف، وجـاءه أبنـاؤه ليخبـروه بـأن الذئـب قـد أكلـه، صَبَـرَ وكانـت الاسـتعانة عدتـه «والله المسـتعان علـى مـا تصفـون»، وتكـرر صبـره عنـد إخبـاره بفقـد ابنـه الثانـي وكان

الدعاء سلاحه، وحُسْنُ الظن بالله تعالى شعاره «عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا»، ولما عاب عليه أبناؤه تذكره يوسف عليه السلام، بثّ حزنه وشكواه إلى الله سبحانه وتعالى «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله».

يعقوب عليه السلام تسلَّحَ بحسن الظن بالله تعالى في مواجهة اليأس الذي يهاجم القلوب مستهدفًا القضاء على روح الأمل فيها، فأصبح قلبه مطمئنًا واثقًا بأن الله تبارك وتعالى سيزيل عنه الكرب، ويبدل حزنه فرحًا، ويجعل عاقبة عسره يسرًا وفرجًا، فكانت وصيته لأولاده تعكس هذا الإيمان العميق: «لا تيأسوا من روح الله»، وكان يَشْتَمُّ رائحة الفرج على الرغم مما يعانيه من ألم الحزن ولوعة الفراق: «إني لأجد ريح يوسف».

واجِهْ الابتلاءات بالتوكُّلِ على الله تعالى، وخَفِّفْ وطأة المصائب بالرضا بقضاء الله تعالى وقدره، وادفعْ جحافل اليأس بقلب متفائل يَثِقُ بأن مع العسر يسرًا، ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن، فالتفاؤل منهج نبوي سار عليه أنبياء الله عليهم السلام، واتخذه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم منهجًا في سيرته العطرة، فالمصائب مهما كَبُرَتْ مصيرها الزوال، والليل مهما طال فنهايته فجر مشرق.

صَبْرٌ جميل:

قصة يوسف عليه السلام تسلط الضوء على أمثلة عملية للصبر بأنواعه المختلفة، تعجز عشرات الكتب المطبوعة، ومئات الخطب والمواعظ المسموعة عن شرحها وتوضيحها كما جاءت في هذه السورة الكريمة.

الإنسان عندما يفقد فلذة كبده، وثمرة فؤاده، يشعر بلوعة الفراق، وتظلم الدنيا في وجهه، ويطبق عليه الهَمُّ، وتحاصره الأحزان من كل جانب، فكيف إذا كان هذا الفقد نتيجة مؤامرة حاكها أبناؤه، هذا ما حصل مع يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه يوسف، فعالج مرارة الفقد بدواء الصبر قائلًا: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، فكان الصبر تسليةً لقلبه المحزون، وتأمَّلْ ردة فعله عندما فقد ابنه الآخر في ظروف مشابهة، قال «فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا». هذا الصبر على فقد الأحبة والرضا والتسليم بقضاء الله تعالى، والثقة به سبحانه أورثته فرجًا ملأ قلبه سرورًا، وبشارة أضاءت نور عينيه، ولقاءً أزاح هموم سنوات الفراق.

وهذا يوسف عليه السلام، يتعرَّض لألوان الابتلاء المتنوعة، التي بدأت بمؤامرة الإبعاد عن أبيه وإلقائه في غيابة الجب، ثم تبعها بيعه بثمن بخس دراهم معدودة وهو النبي ابن النبي، ثم تعرَّضَ إلى اتهامات باطلة أدخلته السجن، فمكث فيه بضع سنين، فجعل الصبرَ رفيقًا له في كل حدث من هذه الأحداث المؤلمة، وبالإضافة إلى صبره على الابتلاء، ضرب عليه السلام مثلا آخر من أمثلة الصبر عندما تهيأت له كل الأسباب الداعية إلى فعل الفاحشة، من امرأة جميلة ذات حسب وجاه تراوده عن نفسه، وخلوة تخفيه عن أعين الناس، فعصمه الله تعالى، وصبر عن فعل المعصية، وصبر على الاتهامات الباطلة، فأصبح قميصه دليل براءته، والنسوة اللاتي حضرن عند امرأة العزيز شهود عفَّتِهِ.

وبعد هذه الرحلة المليئة بالابتلاءات والمتاعب، يُمَكِّنُ الله تبارك وتعالى لعبده يوسف عليه السلام: «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض»، ويُسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، من نجاة من المخاطر، ومُلكٍ لخزائن الأرض، وبراءة من التهم الباطلة، واجتماع بأبويه وإخوته، ويختم يوسف عليه السلام القصة ببيان سبب التمكين قائلا: «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

تَسَلَّحْ بالصبر على الأقدار المؤلمة، واجعله عدتك في مواجهة الفتن والمعاصي، ورفيقك الذي يشد عضدك عند إقدامك على العبادات والطاعات، وأبشر بتوفيق الله تعالى لك.

عِفَّةٌ تهزم إغراءات الفاحشة:

استقرَّ يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر، وفي أحد الأيام وجد نفسه أمام ابتلاء جديد، واختبار من نوع آخر، حيث دخلت عليه امرأة العزيز ذات الجمال والجاه، وأحكمتْ إغلاق الأبواب، وتَقدَّمَتْ إليه تراوده عن نفسه، وتعرض عليه أن يفعل الفاحشة معها!

في هذه اللحظة العصيبة، تهيأتْ أسباب فعل المعصية ليوسف عليه السلام على شكل إغراءات يَصْعُبُ على الإنسان مقاومتها إن لم يكن معتصمًا بالله سبحانه وتعالى، فيوسف عليه السلام في عنفوان شبابه، وهو عزب غير متزوج، وغريب بعيد عن أهله، وفي مكان لا يراه فيه أحد من البشر، ومع امرأة ذات منصب وجمال، تَعْرِضُ نفسها عليه، وتقول له «هَيْتَ لك».

هنا يقف يوسف عليه السلام ليواجه هذه الإغراءات مستعينًا بالله سبحانه وتعالى، ومستعيذًا به من فعل هذه الفاحشة فيقول: «معاذ الله»، فيعصمه الله تبارك وتعالى، ويصرف عنه السوء والفحشاء، ثم يضرب يوسف عليه السلام أروع أمثلة الشهامة والوفاء للعزيز فيقول: «إنه ربي أحسن مثواي»، وبعد لجوئه إلى ربه تبارك وتعالى، واستدعائه قيم الوفاء والشهامة والنخوة في نفسه، قرر عليه السلام أن يأخذ بالأسباب المادية، فاتَّجه إلى الباب مسرعًا، فارًا بدينه وعِفَّته من المعصية وشؤمها، وهكذا تحطَّمتْ حزمة الإغراءات التي تهيأتْ ليوسف عليه السلام على صخرة الخشية من الله تعالى والعفة والوفاء.

في هذه الحياة أنت مُعَرَّضٌ لأن تأتيك الإغراءات بأشكال متعددة، تستهدف دينك وضميرك وأمانتك وعِفَّتَك، قد يراودك منصب تتخلّى في سبيل الوصول إليه عن مبادئك، وقد تراودك شهوات محرَّمة تُفسد عليك دنياك وآخرتك، وقد تراودك شبهات تشكك في دينك وعقيدتك وثوابتك. إن مواجهة هذه الفتن تحتاج إلى استخدام الطريقة اليوسفية، فيبدأ الإنسان بالاستعاذة بالله عزَّ وجل، والاعتصام بحبله تعالى، واتخاذ الأسباب المادية المعينة على تجاوز هذه الفتن، لتصل إلى النتيجة التي وصل إليها يوسف عليه السلام عندما صرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء.

المعدن الأصيل:

في كل منعطف تَمُرُّ به حياة نبي الله يوسف عليه السلام، يبرز جانب مشرق من جوانب شخصيته المتميزة، يتجلّى فيه خُلُقُهُ النبيل ومعدنه الأصيل.

في قصر الملك كان يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز خلف الأبواب المغلقة، تراوده عن نفسه، وتمهِّد له طريق الفاحشة، فيرفع شعار الوفاء لمن أَحْسَنَ إليه ويقول: «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي»، لم ينسَ عليه السلام المعروف، ولم يتجاهل حسن العشرة، فكان رده مفعمًا بالوفاء والنخوة والرجولة.

وفي مشهد آخر من مشاهد قصة يوسف عليه السلام، ومن داخل السجن الذي فضّل المكوث فيه سنوات من عمره على أن يعصي ربه سبحانه وتعالى، يستفتيه فتيان رافقاه في سجنه، ويطلبان منه تأويل الرؤيا، فيستجيب لطلبهما، ويؤول رؤياهما، ولا ينسى في هذا المقام وهو في السجن، أن يذكِّرهما بأعظم رسالة في هذا الكون قائلًا: «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار»، فيدعوهم يوسف عليه السلام إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ويأمرهم بنبذ الشرك، بواسطة نقاش مبني على أدلة عقلية تقنع أصحاب الفطر السليمة، وهذا دأب الدعاة والمصلحين على مَرِّ التاريخ، لا يتركون مناسبةً إلا ويُذكِّرون فيها الناس بربهم سبحانه وتعالى، ويدعونهم إلى توحيده.

وبعد أن مَكّنَ الله تبارك وتعالى ليوسف عليه السلام في الأرض، وأدرك إخوته الخطيئة التي ارتكبوها بحقه، قالوا: «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين»، فكانت إجابة نبي الله يوسف على إخوته درسًا في التسامح والعفو عند المقدرة للبشرية كلها، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم».

في هذه المواقف والمشاهد، يبرز المعدن الأصيل ليوسف عليه السلام، الذي لم تغيره قسوة الابتلاءات والمحن، ولم يؤثر

فيه بريق السلطة والسطوة، فيوسف الذي قيل له في سجنه: «إنا نراك من المحسنين»، هو نفسه يوسف الذي قيل له عندما تَمَكَّنَ في الأرض: «إنا نراك من المحسنين».

مكارم الأخلاق تحفظ صاحبها من الوقوع في الخطأ على الرغم من حاجته، وتبعد عنه الشعور بلذة الانتقام رغم قدرته، فاسألْ الله سبحانه وتعالى أن يجمِّلك بمكارم الأخلاق في كل الأحوال وبمختلف الظروف.

ذلك من فضل الله علينا:

العاقبة الطيبة التي نالها يوسف عليه السلام في كل حدث من الأحداث التي مَرَّتْ به في حياته، لم يُرجعها إلى قوة شخصيته، أو رباطة جأشه وتَجَلُّدِهِ، أو حكمته وحسن تصرفه، بل كان يُرجعها لفضل الله سبحانه وتعالى عليه، ولطفه به في أحلك الظروف والمواقف، وعونه له على تجاوز كل محنة ومصيبة.

في مشهد القصر أَرجعَ يوسف عليه السلام فضل ثباته وعِفَّته وتمنُّعه عن مسايرة امرأة العزيز والنسوة لله سبحانه وتعالى فقال: «وإلا تصرف عني كيدهن أَصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين»، فاستجاب له ربه تبارك وتعالى، وعصمه من هذه الفتنة، وعندما تحدث عن خروجه من السجن لم يُرجعْ الفضل إلى نبوغه في تأويل الرؤى، أو عفو الملك عنه، بل أرجعه إلى صاحب الفضل، لله سبحانه وتعالى، فقال: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن»، واعترف لله تبارك وتعالى بالفضل عليه

في المُلك والتمكين وتأويل الرؤى وجمع شمله بوالديه قائلاً: «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأول الأحاديث». وهكذا يعترف عبد الله ورسوله يوسف عليه السلام بعصمة الله تعالى له من الفتن، وحفظه من المحن، ولم ينسَ حَمْدَ ربه وشكره والاعتراف له بالفضل والجميل بعد التمكين، فختم حديثه بالتذكير بفضل الله تعالى عليه وعلى والديه وإخوته.

تَفَقّدِ النعم التي تتمتَّعُ بها، وما وصلتَ إليه من علم، وما تحصّلتَ عليه من درجة أكاديمية أو شهادة دراسية، وما تحظى به من سمعة طيبة، وإياك أن تُرجِعَ ذلك إلى ذكائك أو قدراتك أو قوتك أو نسبك أو مالك، بل أَرْجِعْهُ لله سبحانه وتعالى صاحب الفضل، الذي تعتصم به لينجيك من الفتن والشدائد، وواجب عليك أن تذكر فضله بعد زوال المحن، وتشكره وتحمده على فضله وإحسانه.

أمنية نبي:

في ختام قصة يوسف عليه السلام، وبعد أن مَرَرْنا على المشاهد المتنوعة، بيْن حزن وألم، وبشارة وفرح، ومحنة وتمكين، يختم يوسف عليه السلام هذه القصة المليئة بالدروس والعبر، بدعاء الله سبحانه وتعالى أن يُحَقِّقَ له أغلى أمنية في حياته. ولكن يا تُرى، ما هذه الأمنية التي كان نبي الله تعالى يوسف يسأل ربه أن يحققها له بعد أن نجّاه من الفتن المتعددة، وجمعه بأبويه وإخوته، وجعله على خزائن الأرض؟

الأمنيـة العظيمـة التـي طلـب يوسـف عليـه السـلام مـن ربـه أن يحققهـا لـه، هـي أن يختـم حياتـه مسـلمًا مؤمنًـا موحـدًا، وأن يُلحقـه بمَـن سـبقه مـن الصالحيـن: «توفنـي مسـلمًا وألحقنـي بالصالحيـن»، نبـي الله تعالـى يوسـف عليـه السـلام حـدّدَ هدفـه، ورفـع مطلبـه إلـى فاطـر السـماوات والأرض، وسـأله أن يختـم لـه حياتـه علـى الإسـلام والتوحيـد، هـذه أمنيـة نبـي الله يوسـف الـذي صبـر علـى مـرارة الابتـلاء، ثـم تـذوَّق حـلاوة التمكيـن.

الأمانـي التـي يسـعى الإنسـان لتحقيقهـا فـي هـذه الحيـاة الدنيـا كثيـرة ومتنوعـة، فجَمْعُ المـال أمنيـة، وصـلاح الأولاد أمنيـة، والمركـز المرمـوق أمنيـة، والدرجـة العلميـة أمنيـة، ولكـن أعظـم الأمانـي وأكثرهـا نفعًـا، وأبقاهـا أثـرًا، هـي أن يختـم الله تعالـى للإنسـان حياتـه بخاتمـة حسـنة يُبعـث عليهـا، فالمـرء يُبعث علـى مـا مـات عليه، فرسـولنا الكريـم صلـى الله عليـه وسـلم قـال فـي الحديـث الـذي رواه أبـوداود وصححـه الألبانـي: (مـن كان آخـر كلامـه مـن الدنيـا لا إلـه إلا الله دخـل الجنـة)، اللهـم أَحسِـن خاتمتنـا وتوفَّنـا مسـلمين.

قصة سحرة فرعون

سورة الشعراء من الآية: ((34 - 51))

قصة سحرة فرعون

أنوار الهداية:

واجهَ نبي الله موسى عليه السلام فرعون وملأه، ودعاهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وتَرْكِ ما هُم عليه من طغيان، فلم يعجب ذلك فرعون الطاغية المتكبر، واتهم موسى عليه السلام بالسحر، ومحاولة إفساد عقيدة قومه، وطلب من ملئه وجنده أن يأتوه بكل سحّار عليم، ليتحدوا موسى، وينتصروا عليه بسحرهم، وجُمِعَ السحرة لميقات يوم معلوم، وجاء اليوم الموعود، الذي يترقَّبه الناس، وأظهر السحرة ثقتهم فخيّروا موسى عليه السلام: «إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى»، فما كان من نبي الله موسى إلا أن قال بلسان الواثق بربه تبارك وتعالى «بل ألقوا»، وانتهى مشهدهم السحري بعصي يُخَيَّلُ للناس من سحرهم أنها تسعى، وهنا جاء التأييد الربّاني لموسى عليه السلام بمعجزة أعجزت السحرة المحترفين، وأبطلت سحرهم الذي كان قبل لحظات يُبْهِرُ أعين الناس.

ولمّا تبيَّن لهم الحق، أشرقت شمس الهداية على قلوبهم، فأزاحت الظلمات عنها، ظلمة الكفر، وظلمة السحر، وظلمة الكِبر، فتحوَّل السحرة الكفرة إلى مؤمنين طائعين لربهم تبارك وتعالى، يرجون رحمته، ويبغون جنته، ويخشون عذابه، فسجدوا لله سبحانه وتعالى مؤمنين تائبين خاضعين.

في كل صلاة نقرأ سورة الفاتحة، ونسأل الله سبحانه وتعالى

الهداية: «اهدنا الصراط المستقيم»، دعاء عظيم نكرره لأهميته في كل صلاة، وضَمَّنَهُ الله تعالى فاتحة كتابه، وكان رسول صلى الله عليه وسلم يسأل الله تعالى الهداية في كثير من أدعيته المأثورة: (اللهم اهدني فيمن هديت)، (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) وفي غيرها من الأدعية.

الهداية توفيقٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، تنقلهم من ظلمات الضلال، إلى أنوار الإيمان، وغاية كل مؤمن في هذه الحياة الدنيا هي أن يهديه الله تعالى هداية رشاد وتوفيق إلى عبادته وطاعته ومرضاته.

السحرة الشهداء:

لم يكن السحرة بحاجة إلى سلسلة من الدروس والمحاضرات والمناظرات تدعوهم إلى الإيمان، ولم يستغرق إقناعهم وقتًا طويلًا، ولكن الإيمان وَقَرَ في قلوبهم، وصَدَّقته جوارحهم، فسجدوا لله سبحانه وتعالى، وأقرّوا بوحدانيته، وكفروا بفرعون، وتركوا سحرهم وكل ما كان يبعدهم عن الله عزَّ وجل.

هذا الإيمان الراسخ الذي نتج عن هذا الموقف العظيم، لم تزعزعه أصناف متنوعة من الترغيب والترهيب التي مارسها فرعون معهم، هؤلاء السحرة في بداية أمرهم كانوا يساومون فرعون على ثمن مواجهتهم موسى «إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين»، فوافق فرعون على طلبهم، وزادهم إغراءً وترغيبًا

فقال: «نعم وإنكم لمن المقربين»، وعندما تزيَّنتْ قلوبهم بالإيمان، واستغنتْ نفوسهم بالطاعة، أداروا ظهورهم لهذه الإغراءات الدنيوية، حتى فقد فرعون أعصابه فأخذ يهددهم ويرهبهم قائلًا: «لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم في جذوع النخل»، ولكن هذا التهديد لا يرهب من تذوَّق حلاوة الإيمان، فكان ردهم عليه واضحًا: «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا»، إيمان راسخ كالجبال، لا تهزه التهديدات، ولا يتزحزح بالإغراءات.

هكذا أصبح السحرة الذين جاؤوا يتحدّون موسى في أول النهار، شهداء قدَّموا أرواحهم في سبيل الله سبحانه وتعالى في آخر النهار.

الإيمان الراسخ يفعل الأعاجيب، ويُرتِّب الأولويات، ويسمو بالغايات، ويُخَلِّصُ النفوس مِنْ ذُلِّ التعلق بالدنيا وملذّاتها وشهواتها، ويُعَلِّقُها بالآخرة التي هي خيرٌ وأبقى، ويُحرِّرُ الإنسان من قيود المخاوف والمطامع التي تُكَبِّلُهُ، ويجعله حرًا عزيزًا بطاعته لربه سبحانه وتعالى.

همسة في أذن مسرف:

كان السَّحَرَةُ يعيشون في بيئةٍ من الضلال والكفر والمعاصي، يعملون في السِّحر المُحرَّم، ويأتمرون بأمر فرعون، حيث يستأجرهم في تحقيق أهدافه، وتثبيت طغيانه، وما دعوتهم إلى تحدي موسى إلا صورة من صور ما كان يمارسه هؤلاء السحرة من ضلال وكفر وموالاة للطاغية الظالم فرعون.

هـذا التاريـخ الـذي يملكـه السـحرة، لـم يقـف حائـلًا أمـام التوبـة النصـوح الصادقـة التـي تجلّتْ عندمـا سـجدوا لله سـبحانه وتعالـى، وقالـوا: «آمنّـا بـرب العالميـن»، ولـم يمنعهـم مـن مقارعـة أكبـر طاغيـة ظالـم علـى وجـه الأرض، ورفـض تهديـده بنفـوس أَبِيَّـةٍ عزيـزة، والتضحيـة فـي سـبيل الله سـبحانه وتعالـى، وبـذل أغلـى مـا يملكـون فـي الحيـاة الدنيـا، والثبـات علـى ديـن الله، حتـى لقـوا الله تعالـى شـهداء مقبليـن غيـر مدبريـن، فتقبَّلَهـم الله تعالـى، وخَلّدَ ذِكْرَهـم فـي القـرآن الكريـم، وأصبحـوا مثـلًا يحتـذى بـه فـي الثبـات والتضحيـة والشـجاعة.

إن فرصـة التوبـة مُتاحـة، وفضـل الله تعالـى واسـع وعظيـم، ومـن أسـمائه الحسـنى عـزَّ وجـل الرحمـن الرحيـم، فهـذا بـاب الرجـاء والأمـل مفتـوح لـكل عـاصٍ أسـرفَ علـى نفسـه وظلمهـا، وضَـلَّ طريـق الهدايـة سـنوات مـن عمـره، قصـة سَـحَرَةِ فرعـون تُعَلِّمُنـا درسًـا مهمًـا، وهـو أن سـجلّك التاريخـي المُتْخَـمُ بصفحـات المعصيـة والإسـراف، تمحـوه سـجدةٌ خالصـة لله سـبحانه، ورغبـة صادقـة فـي فتـح صفحـة جديـدة مـن الطاعـة، فـلا تقنطـوا مـن رحمـة الله سـبحانه وتعالـى، وتوبـوا إليـه، وأقبلـوا علـى طاعتـه.



قصة العالِم المُنْتَكِس

سورة الأعراف من الآية: ((175 - 177))

قصة العالِم المُنْتَكِس

الحَوَر بعد الكَوَر:

في سورة الأعراف يذكر الله عزَّ وجل قصة العالِم الذي شَرّفه بأخذ آياته، ويأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يتلوَ على أمته قصة هذا الرجل فيقول: «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا»، إن العلم شرف عظيم لحامله، وأفضل هذا العلم هو العلم الشرعي الذي يعرف الإنسان به ربه سبحانه وتعالى.

هذا الرجل لم ينفعه علمه، ولم يزده قُربًا من الله سبحانه وتعالى، بل انتكس، ونكص على عقبيه، وتأمّلْ دقة الوصف القرآني لحالته البائسة التي وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: «فانسلخ»، والانسلاخ مصطلح يُعَبَّرُ به عن مفارقة الجلد اللحم، وجاء في هذه الآية ليُعَبِّرَ عن ابتعاد الرجل عن آيات ربه سبحانه وتعالى، فالعالِم الذي يعرف آيات ربه عزَّ وجل، يكون وثيق الصلة بها، لا يتَّخِذ قرارًا، ولا يتبنى موقفًا، إلا إذا عرضه على آيات ربه سبحانه وتعالى، وتأكَّدَ من عدم مخالفته لها.

الابتعاد عن آيات الله سبحانه وتعالى، وانتكاس صاحب العلم، واختيار الضلال بعد الهدى، يجعل الإنسان فريسةً سهلةً للشيطان ومكايده، فاستغل الشيطان انسلاخ هذا الرجل عن آيات ربه عزَّ وجل، وزيّن له طريق الغواية والضلال، فأصبح تابعًا للشيطان، بعد أن كان طائعًا للرحمن.

الإنسان المؤمن، والعالم الربّاني، وصاحب العبادة، أناس لا يغترّون بما هم عليه من صلاحٍ وطاعةٍ، ولا يركنون إلى ما وفقهم الله تعالى بالحصول عليه من حفظ لكتابه الكريم، أو نصيب من علم شرعي، ولكنهم بأَمَسِّ الحاجة إلى اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، والافتقار إليه، والإكثار من دعائه بالثبات على الدين القويم حتى الممات، وهذا رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- كان يُكثر من دعاء: (يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك)، ويستعيذ بالله سبحانه وتعالى من الحَوَرِ بعد الكَوَرِ، والكور هو لَفُّ العمامة وجمعها، والحور نقضها بعد لفِّها، فيقول صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور)، فالموفق من استعان بالله تعالى على الطاعة، وسأله الثبات عليها حتى يلقاه، وأخذَ بالأسباب المعينة على ذلك.

سقوط من عُلو:

يكمل الله تبارك وتعالى وصف حالة هذا الرجل المنتكس، والعالم المنسلخ، فيقول عزَّ وجل: «ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض»، فالله عزَّ وجل يرفع بآياته من بذل الجهد والوقت في تعلّمها، وأخلص النية للعمل بها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي صححه الألباني في صحيح الجامع: (إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين).

هذا العالِم الذي آتاه الله تعالى آياته، التي من شأنها أن تُعليَ مكانته، وتَحْجِزَ له مقعدًا رفيعًا مع أهل الفضل والعلم، اختار

لنفسـه موقعًـا فـي الحضيـض، حيـث لـم يعمـل بآيـات ربـه سـبحانه وتعالـى، ولـم يتعـظ بمـا فيهـا مـن البيّنـات، فاختـار الأرض، ومـال إلـى الهـوى، وانحـدرت نفسـه إلـى شـهوات الدنيـا، وغاصـت فـي شـبهاتها ومفاتنهـا، فحـاد عـن جـادة الصـواب، وسـلك طريـق الغوايـة، فأصبـح تابعًـا للشيطان، واقعًـا فـي مصيـدة مكايـده، مُكَبَّـلا بوسـاوسـه، مُتَّبِعًـا خطواتـه، حتـى سـقط مـن منزلـة العلمـاء الراسـخين، ووقـع فـي قـاع المنسـلخين المنتكسـين.

آيـات اللّه تبـارك وتعالـى، والعلـم الشـرعي الـذي يُعَـرِّفُ الإنسـان بالخالـق الكريـم، يرفـع صاحبـه، فالعالِـم العامـل، الـذي يعمـل بعلمـه، ويـؤدي زكاة علمـه بتعليـم النـاس الخيـر، ويتقـدم الصفـوف بفعلـه ليكـون قـدوة للنـاس، هـو الـذي يُحلِّق عاليًـا بجناحـي العلـم والعمـل، وينعـم بمـا تفضَّـلَ اللّه تعالـى عليـه مـن رفعـة وسُـمُو، بينمـا العالِـم الـذي يخالـف فعلـه قولـه، ويشـتري بآيـات اللّه سـبحانه وتعالـى ثمنًـا قليـلًا، ليفـوز بعَـرَضٍ دنيـوي زائـلٍ، هـو الـذي اختـار لنفسـه الدنـوَ والسـقوط فـي وحـل التنـازلات والتبديـل والتحريـف.

لا تَنْقُضْ غَزْلَكَ:

المنتكِـس الـذي اسـتبدل الـذي هـو أدنـى بالـذي هـو خيـر، وانغمـس فـي شـهواته، ولـم يرتـدع بمـا يحفـظ ويفقـه مـن آيـات، وصـل بـه الانحـدار إلـى الدرجـة التـي صـار فيهـا مَثَلُهُ كمثـل الكلـب يلهـث: «فمثلـه كمثـل الكلـب إن تحمـل عليـه يلهـث أو تتركـه يلهـث»، فأصبـح أسـيرًا لأهوائـه، ذليـلاً لملذّاتـه، لاهثًـا وراء شـهواته، لا يُحِـلُّ حـلالاً، ولا يُحَـرِّمُ حرامًـا، بـاع دينـه بعَـرَضٍ مـن الدنيـا قليـل.

لقد أكرمه الله تعالى، وآتاه من آياته البيّنات، ولكنه اختار لنفسه الدنو على السمو، والانحدار بدلاً من الرفعة، فصار حاله بعد إعراضه عن الآيات، وإدباره عن الخيرات التي كانت تحيطه من كل جانب، كحال الكلب اللاهث وراء شهواته، لا يجد راحةً أبدًا، ولا يقنع بعطاء، ولا يهنأ بسكينة، يلهث وراء مطامعه، ويُطَوِّع من أجلها ما يملك من علم.

يا حافظ القرآن، ويا طالب العلم، يا مَنْ تَذَوَّقْتَ حلاوة الإيمان، ويا من أنار الله تعالى لك طريق الهداية فاستقمت عليه، إيّاك أن تنقضَ غزلك، واحذر من النكوص على عقبيك، لكي لا تشعر بمرارة المعصية بعد حلاوة الإيمان، وعتمة الضلالة بعد نور الهداية، وسِرْ على الصراط المستقيم، لكي لا تتخطفك الشهوات المهلكة، والشبهات المضلة.

انتكاس العالِم وطالب العلم والداعية قضية خطيرة، ضرب الله تعالى لها مثلًا واقعيًا في هذه القصة من القرآن الكريم، وختمها سبحانه وتعالى بقوله: «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون»، التفكر في قصص القرآن الكريم، والاعتبار بما فيها من دروس وعظات، من وسائل الثبات على الطريق المستقيم، ومن أهم الأمور التي تساعد الإنسان على تَجَنُّب أسباب الضلال من شهوات وشبهات، فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: «وكُلًّا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك».

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه
سورة الأنبياء من الآية: ((51 - 73))

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

داعية التوحيد:

القضية المركزية التي كانت تشغل إبراهيم عليه السلام، هي قضية معرفة إله هذا الكون، ونَبْذِ كل ما كان يُعْبَد من دونه، واتَّضَحَ ذلك جليًّا في تفكُّره وتأمُّله في هذا الكون والمخلوقات، حتى توصَّلَ إلى الحقيقة الراسخة التي لا تقبل الشك، وتقود إليها الفطر السليمة، والعقول الرزينة، وتبرهن عليها جميع الأدلة، وهي أن لهذا الكون إلهًا واحدًا، إله أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ لم يلد ولم يولد، هو وحده المستحق للعبادة.

وكان إبراهيم عليه السلام يعيش وسط قوم يعبدون الأصنام، وأبٍ لا يُوحِّد الله تبارك وتعالى، فأصبح هَمُّهُ إصلاح هذه العقائد الفاسدة، وإثبات بطلانها بالأدلة العقلية، ودعوتهم إلى توحيد الله سبحانه في العبادة، وإقامة الحجة عليهم.

في سورة الأنبياء يبدأ الله تبارك وتعالى الحديث عن إبراهيم بِذِكر نعمة عظيمة أنعمها عليه فقال: «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين»، هذا الرشد الذي كان سلاح إبراهيم عليه السلام في القضاء على حجج قومه ومبرراتهم، واستخدمه في هدم العقائد الفاسدة في قلوبهم، قبل أن يحطم أصنامهم التي يعبدونها بيديه.

بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته بنفض الغبار عن عقول قومه المتحجرة، وإزالة الغشاوة التي تغطي أعينهم، وإذابة الران الذي

يُغلّف قلوبهم، فبادرهم بسؤال يزعزع فيه القناعات الباطلة فقال: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»، هذا السؤال شَكَّلَ صدمةً لمن عكف على عبادة أوثان لا تسمع ولا تنطق ولا تغني عن عبّادها شيئًا، فردّوا ردًا يكشف عن تهافت حجتهم بالقول إنَّ آباءهم كانوا يعبدونها، وهم على نهجهم سائرون! وهنا بيّن لهم عليه السلام ضلال آبائهم الذي اتبعوه، ودعاهم إلى توحيد ربِّ السماوات والأرض الخالق البارئ سبحانه وتعالى.

الله تبارك وتعالى خَلَقَ الخلق، وأرسل الرسل، من أجل القيام بدعوة أقوامهم إلى عبادته سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وهذه رسالة كل مسلم في هذه الحياة، دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى اعتقادًا وسلوكًا.

هدم الأباطيل:

كشف إبراهيم عليه السلام عقيدتهم الباطلة، ودعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فقابلوا دعوته بالإصرار على الكفر، والتشبث بضلال الآباء، فقرر عليه السلام أن يقدم لهم درسًا عمليًا يوضح لهم من خلاله فساد معتقدهم وغفلة قلوبهم، فقال: «وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُولّوا مدبرين»، فرسم خطة مُحْكَمَةً تجمع بين دقة التنفيذ، وإقامة الحجة على الخصم بحكمة وذكاء.

استثمر إبراهيم عليه السلام ابتعاد قومه عن أصنامهم وأوثانهم، فقام بتحطيمها وتَرَكَ كبيرهم لحكمة أرادها، تفاجأ القوم بعد عودتهم، بمنظر الأوثان المُحطَّمة، فوجهوا أصابع

الاتهام إلى إبراهيم عليه السلام، الذي دعاهم إلى تركِ عبادة هذه الأوثان، وقرروا مواجهته فقالوا: «فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون»، وقد تحقق لإبراهيم عليه السلام ما يريد، وهو أن يشهد هذه المواجهة الفكرية المعرفية أكبر حشد من الناس، ليبرهن على صدق دعوته، وتهافت حجة خصومه، وضلال معتقدهم.

سألوه: «قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم»، فردَّ عليهم ردًا مُفْحِمًا، يُعَرّي خرافاتهم وأباطيلهم، فقال لهم بأن الفاعل هو كبيرهم! فاسألوهم أو اسألوه، فبُهِتَ القوم، وأُسْقِطَ في أيديهم، وعرفوا عجز ما يعبدونه، وضلال ما يعتقدونه، وشهد الناس على هذا الدليل العقلي المقنع لأولي الألباب، ولكن أخذتهم العزة بكفرهم، ولم يثوبوا إلى رشدهم.

العاقل لا يبادر إلى مهاجمة خصمه بحماسة مندفعة قد تكون عواقبها وخيمة، ولكن عليه أن يعد العدة اللازمة لأي مواجهة فكرية أو حوارية أو معرفية أو دعوية، ويتسلَّح بالأدلة، ويسعى لكسب أكبر عدد ممكن من الناس أو المتابعين أو المهتمين إلى صفه بالإقناع وتقديم الدليل، كما فعل نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه.

العناية الإلهية:

قوم إبراهيم من عبدة الأوثان لم ينقادوا للأدلة العقلية والحجج الصادقة التي أقامها عليهم، بل استمَروا في غيِّهم وعنادهم، ولم يعترفوا بانتصار إبراهيم عليه السلام عليهم في هذه المواجهة الفكرية، فاتَّبعوا أسلوب الضعفاء المنهزمين، الذي يظهر عجزهم،

ويكشف إفلاسهم في مواجهة إبراهيم عليه السلام، فاختاروا أسلوب الانتقام للتخلُّص من إبراهيم عليه السلام.

اشتعلت نار الانتقام في صدور القوم، واتخَذوا القرار الأهوج بمعاقبة إبراهيم عليه السلام، يعاقبونه لأنه نصحهم، وبيّن ضلال معتقدهم، وأظهر تهافت حجتهم أمام الناس، فأشعلوا النار ليلقوا فيها نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي واجه هذه المحنة الشديدة، والابتلاء العظيم، بنفس راضية بما قدَّمته من تضحية من أجل أعظم رسالة (رسالة التوحيد)، واطمئنان يسري في قلبه وعقله وجسده، لأنه مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى معه، ومَن كان الله تعالى معه فلن يضره أحد.

ارتكبوا جريمتهم، وألقَوا إبراهيم في النار، وقال عبد الله بن عباس كما جاء في صحيح البخاري: أن نبي الله إبراهيم كان يردد وهو في النار: حسبي الله ونعم الوكيل. فاستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء عبده إبراهيم وقال: «يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم»، فصار لهيب النار الحارق بردًا وسلامًا يتنعَّم فيه خليل الرحمن إبراهيم، ونجّاه الله تبارك وتعالى من كيدهم ومكرهم، وَرَدَّهم خاسرين خائبين.

عناية الله عز وجل يختص بها عباده المؤمنين الصادقين، فالإنسان المؤمن يتجاوز الشدائد التي يمر بها، وتهون عليه المصائب، إذا توكَّل على ربه سبحانه وتعالى حقّ التوكل، واستعان به، وجعله حسبه، وأكثر من قول: حسبنا الله ونعم الوكيل بلسانه، واعتقدها اعتقادًا جازمًا بقلبه، فالله تعالى سيكون حسبه وكفيله وحافظه وكافيه من كل شر أو مكروه قد يقع له.

قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل

سورة الصافات من الآية: ((99 - 113))

قصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل

البلاء المبين:

بَلَّغَ إبراهيم عليه السلام قومه الرسالة على أكمل وجه، وأمرهم بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وكشف زيف آلهتهم، فمكروا به، ولكن الله تعالى نجّاه من مكرهم، فتبرأ منهم ومن آلهتهم، وقرر الهجرة، وسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقه الذرية الصالحة: «ربِّ هب لي من الصالحين»، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ووهب له غلامًا حليمًا: «فبشرناه بغلام حليم»، وجعله نبيًا صالحًا بارًا بوالديه، وهو إسماعيل عليه السلام، فأحبَّه والده حبًا شديدًا، حتى أصبح شابًا يافعًا يساعد أباه ويعينه.

ولمّا كان الابتلاء سنةً من السنن الإلهية في هذه الحياة الدنيا، يختبر به الله تبارك وتعالى عباده، فيميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، وتظهر فيه معادن المؤمنين، تَعرّضَ نبي الله إبراهيم لابتلاء عظيم، حيث رأى في المنام -ورؤيا الأنبياء حق- أنه يذبح ولده إسماعيل عليه السلام، هذا الولد الذي وهبه الله تعالى لوالده على كِبَر، فملأ حياته سعادةً، وتعلَّق به تعلقًا شديدًا، فجاء هذا الابتلاء والاختبار لنبي الله إبراهيم عليه السلام، ليكشف صدقه مع الله سبحانه وتعالى، وتضحيته بأحبِّ الناس إلى قلبه، امتثالًا لأوامر الله تعالى، وابتغاءَ مرضاته، وواجه الابتلاء بالصبر والرضا واحتساب الأجر.

الإنسان مُعرَّضٌ لأنواع الابتلاءات المتنوعة في الدنيا، وقد يأتي الابتلاء على هيئة نعمة يَسْعَدُ بها الإنسان، فيُختبر هل شكر المُنعم؟ وحافظَ على النعمة؟ واستخدمها في طاعة الله تعالى، وقد يأتي الابتلاء على هيئة مصيبة تمر بالإنسان، فيَختبِر الله تعالى ردة فعله على هذه المصيبة، هل رَضِيَ وصبر؟ وقال عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، أم سخط وجزع؟

الابتلاء للمؤمن كله خير، فيه رِفْعَةٌ لدرجته، وزيادة في أجره، وتكفير لسيئاته، إنْ واجهَ هذا الاختبار بثلاثية الصبر والرِضا واحتساب الأجر، وقد كان أكثر الناس بلاءً الأنبياء -كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم-، ثم ذكر بعدهم الأمثل فالأمثل، وهم الصالحون المصلحون، فالبلاء ضيفٌ يحلُّ على الإنسان، فهنيئًا لمَن أحسن ضيافته، وأكرمه بالصبر والرضا واحتساب الأجر من عند الله سبحانه وتعالى، ولم يجزع أو يسخط، ولم يدعْ اليأس يحطم روحه المعنوية.

الاستسلام لله تعالى:

الدين الحق الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لنا هو الإسلام، وأمرنا سبحانه وتعالى بأن نموت عليه: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»، والإسلام دعوة الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم عليه السلام وحتى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وحقيقة الإسلام تتجلّى في الاستسلام الحقيقي لله عزَّ وجل، والامتثال لأوامره، والانقياد التام لما جاء به الشرع الحكيم.

إن الاستسلام الحقيقي لله سبحانه وتعالى، يكون في امتثال العبد لأوامر ربه تعالى ونواهيه، ومخالفة هوى النفس، وتقديم محبة الله تبارك وتعالى على غيرها، وتعظيم أوامره وشعائره. وكانت البشرية على موعد مع درس تاريخي يُجَسِّدُ المعنى الحقيقي للاستسلام لله تعالى في حادثة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع فلذة كبده وثمرة فؤاده إسماعيل عليه السلام، الولد الصالح الذي وهبه الله تعالى لأبيه بعد أن أصبح شيخًا كبيرًا، وصار الولد ذراع أبيه الأيمن، وسنده الذي يتكئ عليه في هذه الحياة. ولمّا بَلَغَ معه السعي، جاء الأمر الربّاني لإبراهيم بذبح ولده، يا له من ابتلاء عظيم، استقبله إبراهيم عليه السلام بقلب راضٍ بما كتبه الله تعالى، ونفس مستسلمة لأوامره، فقبل الأمر بلا تردد، وعرضه على ولده، فما خَيَّبَ الولد ظنّ أبيه، بل أَتْبَعَ استسلام أبيه للأمر الربّاني باستسلام يكشف مدى رسوخ الإيمان في نفسه «يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

انتهى الاختبار، وجاءت البشارة من رب العالمين: «وفديناه بذِبح عظيم»، وثبت الأجر لإبراهيم وإسماعيل، وخلَّدَ الله تعالى قصتهما في القرآن الكريم، ليتعظ بها أولو الألباب، ويعرف أهل الإيمان معنى الاستسلام الحقيقي لله تعالى.

الأوامر والنواهي الربانية ليست محل نقاش وجدل، ولا يصحُّ أن تكون عُرضةً للأهواء والآراء، يقبل منها الإنسان ما يوافق هواه، ويردُّ ما يخالف هواه، بل يجب الانقياد لها بالتسليم التام والتنفيذ الكامل، فالمسلم الحق هو الذي يستسلم للشرع الحكيم وما نصَّ عليه من أحكام وأوامر.

صاحب الدعاء المستجاب:

كان نبي الله إبراهيم عليه السلام قدوةً في استسلامه لأوامر الله تبارك وتعالى، ومثالًا يُحتذى به في تضحيته وحكمته وإخلاصه في الدعوة إلى التوحيد، حتى وصفه الله تعالى بقوله: «إن إبراهيم كان أمةً قانتًا لله حنيفًا»، وأصبحت دعوته وتضحيته وصبره وعطاؤه مبادئ تُدرس للبشرية في كل زمان ومكان.

مرَّ إبراهيم عليه السلام خلال مسيرته الدعوية بمحطات متنوعة، واجه فيها الابتلاءات المتعددة، وقدّم التضحيات الكبيرة، والمتأمّل لهذه المسيرة الحافلة بالعطاء والتضحيات يجد أن الدعاء هو السلاح لم يفارق الخليل عليه السلام في كل محطة من هذه المحطات، فعند إلقائه في النار ردّد بكل ثقة ويقين: «حسبي الله ونعم الوكيل» فجعل سبحانه وتعالى النار بردًا وسلامًا عليه، وعندما تقدَّمَ به العمر دعا الله تعالى أن يرزقه الذرية الصالحة: «رب هب لي من الصالحين»، فوهبه الله تعالى إسماعيل وإسحاق، ثم سأل الله تعالى أن يصلح ذريته ويجعلهم من المصلين: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي» فبارك الله تعالى له في ذريته، وجعل فيها النبوة والكتاب، وعندما ترك أهله في مكة المكرمة، وكانت واديًا غير ذي زرع قال: «فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم»، فصارت مكة المكرمة قبلةً يقصدها المسلمون من جميع أنحاء العالم، واستمر عليه السلام بدعاء ربه تعالى فقال: «واجعل لي لسان صدق في الآخرين»، فكتب الله عزَّ وجل له الثناء الحسن، والذِكر الطيب حتى قيام الساعة.

الله تبارك وتعالى يفتح أبواب رحمته لعباده فيقول: «ادعوني أستجب لكم»، وهذا ما عمل به خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في كل محطات حياته، فاستجاب الله تبارك وتعالى لدعائه، فاجمع أمنياتك، وحدد أهدافك، واحرص على تحرّي مواطن استجابة الدعاء، وارفع يديك متضرعًا، واطلب من الكريم الوهّاب وأنت موقنٌ بالإجابة، وأبشر بالخير من رب كريم يستحيي أن يردَّ عبده إذا دعاه وسأله، واعلم أن العاجز، هو من عجز عن الدعاء.

قصة نوح عليه السلام مع قومه
سورة هود من الآية: ((25 - 49))

قصة نوح عليه السلام مع قومه

جَلَدُ الداعية:

أرسل الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه السلام إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأوثان، فدعاهم إلى توحيد الله عز وجل، وترك عبادة الأصنام، وظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، دون كللٍ أو مللٍ، فما آمن معه إلا عدد قليل، واستمرَّ بنصحهم ودعوتهم إلى التوحيد «ألا تعبدوا إلا الله»، وأظهر خشيته عليهم، ورحمته بهم: «إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم».

فما كان من عتاة الكفار من قومه إلا أن رفضوا رسالته، وكذّبوا دعوته، تارةً بحجة أنه بشر مثلهم، وتارةً أخرى بزعمهم أن ضعفاء القوم هم أتباعه، ولم تكن تلك الحجج الواهية السبب في كفرهم، وإنما هي والله القلوب التي فاقت الحجارة قسوة، والأعين التي أعماها الاستكبار والعناد عن رؤية الحق المبين، فصبرَ نوح عليه السلام على افتراءاتهم، واستمرَّ في دعوته، وجادلهم بالتي هي أحسن، ملتزمًا منهج الأنبياء القويم، الذي يخاطب القلوب، ويصبر على الأذى، وتغلب عليه الرحمة والحب، ويتميز بالتجرد من مطامع الدنيا: «ويا قوم ما أسألكم عليه من أجر»، فالداعية الصادق يبتعد عن التنافس الدنيوي مع قومه، ويسمو بهدفه إلى نيل الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى.

هذه المسيرة الدعوية الطويلة لنبي الله نوح، تخلَّلها تكذيب وصدود وإعراض وجدال من قومه، فواجه ذلك عليه السلام

بالصبر والاحتساب والحكمة والحوار الهادئ المستند على الأدلة والبراهين، وكل داعية اليوم، وصاحب رسالة يريد إقناع الناس بها، وحتى الأب في بيته، بحاجة إلى تدريب النفس، وإكسابها هذه الصفات التي كان يتحلّى بها نوح عليه السلام، فطريق الدعوة والنصح والتربية ليس مفروشًا بالورود، ولكنه طريق وَعِر يحتاج إلى إخلاص النية لله تعالى واحتساب الأجر، وتوقع الأذى وتحمُّله، وصبر على المدعوين واحتوائهم، واستمرار في النصح والدعوة والإرشاد مهما تأخرت النتائج.

لا تبتئس:

الصدود والتكذيب الذي وجده نوح عليه السلام من قومه، بعد مئات السنين من الدعوة والنصح والحوار، جعله حزينًا على حالهم؛ فالداعية حريص على قومه، يريد لهم الخير، ويحزنه تكذيبهم وكفرهم وعنادهم. وفي هذا الوقت، أوحى الله تبارك وتعالى إلى نوح: «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن»، فعرف نوح عليه السلام مصير قومه الذي اختاروه لأنفسهم، وأراد تبارك وتعالى أن يطمئن عبده ورسوله نوح، ويخبره بأنه قد أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، فلا داعي للحزن والأسى، فقال عزَّ وجل: «فلا تبتئس بما كانوا يفعلون»، وهذا منهج ربّاني يوحيه الله تبارك وتعالى إلى رسله، وقد حصل مثل هذا مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما قال له الله سبحانه وتعالى: «ولا تحزن عليهم»، وقال عزَّ من قائل «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»، وقوله تعالى لموسى عليه السلام: «فلا تأسَ على القوم الفاسقين».

يرشدنا الله تبارك وتعالى إلى أن المطلوب من الداعية الناصح أن يبذل السبب، ويصدق في النصيحة، ويصبر على ردود أفعال الناس بعد نصحهم، فسيكون منهم المُكَذِّب، والمُشكك، والمُستهزئ، وقليلٌ منهم سيتقبل النصيحة، وينقاد إلى الحق، فلا يكن سلوكهم هذا سببًا يُشعر الداعية الناصح بالحزن والإحباط والأسى.

امضِ في طريق الحق، ولا تيأس من بذل النصيحة، واصبر على ما قد تجده من الأذى، ولا تسمح للحزن أن يتسلل إلى نفسك إذا واجهتَ إعراضًا وصدودًا من المدعوين، فالصبر سلاح الداعية، والتفاؤل زاده، واحتساب الأجر عند الله سبحانه تعالى غايته الكبرى، فنحن نتعبَّد الله تبارك وتعالى ببذل الأسباب قدر الاستطاعة، ولا ننشغل بالنتائج، ولا نحزن على المآلات.

الابن الضال:

صَدَرَ أمر الله تبارك وتعالى إلى نوح عليه السلام بصنع السفينة، وأوحى إليه بأن العقاب سينزل بالكافرين والمعاندين من قومه، واستجاب نوح عليه السلام إلى أمر ربه سبحانه وتعالى، وشرع ببناء السفينة، وإعداد عُدة النجاة، مُعْرِضًا عن سخرية قومه واستهزائهم، واثقًا بحفظ الله تبارك وتعالى له، ثم أمر المؤمنين معه بركوب السفينة التي تسير بأمر رب السماوات والأرض وحفظه، ومع تلاطم الأمواج، تتحرك عاطفة الأبوة في نفس نوح، وتدفعه إلى توجيه النداء الأخير لابنه: «يا بني اركب

معنا ولا تكن مع الكافرين»، ولكن هيهات لمن أعماه الضلال أن يبصر طريق النجاة، فردَّ على أبيه بقوله: «سآوي إلى جبل يعصمني من الماء»، وظن أن الأسباب المادية ستنجيه من عقاب الله تعالى، فكان من المغرقين.

وما زال الأب الحنون يرجو النجاة لابنه، فيدعو الله تبارك وتعالى: «إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين»، وهنا تأتي المفاصلة الإيمانية، ويتجلّى الولاء والبراء، فيقول الله عز وجل لعبده ورسوله نوح: «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح»، هذا الابن لم يكن على دينك، خالفَ دعوتك، ولم يستمع إلى نداء الحق، ولم يستجب إلى رسالة التوحيد، بل ازداد كفرًا وعنادًا، فاستحق العذاب.

إن العقيدة هي أوثق رباط، وإنها تسمو على ما سواها من روابط دنيوية، فمن لم يكن على دينك ومِلّتك، فليس من أهلك، وإن كان بينكم قرابة ودم ونسب، فاجعل العقيدة هي معيار القرب والولاء من الأشخاص لا غيرها.

نوح عليه السلام نبي من أولي العزم من الرسل، ومع هذا كان ابنه كافرًا، رفض دعوة أبيه ونصحه، فاستحق العقاب والعذاب، ومثل هذا حصل مع إبراهيم عليه السلام وأبيه، ونبينا صلى الله عليه وسلم وعمه أبي طالب، فلا تسخر من عالِم أو داعية أو إنسان صالح كان أحد أقربائه ضالًا، فالهداية ليست بيد أحد من البشر، ولكنها من الله سبحانه وتعالى، فإياك أن تشمت بصالح ابتُلِيَ بفساد ابنه أو ابنته، واعلم أنه لاتزر وازرة وزر أخرى، وأن الإنسان إذا بذل وسعه في إصلاح أهل بيته وأقربائه ونصحهم،

فليس عليه شيء بعد ذلك إن هم رفضوا نصيحته، ولم يستجيبوا إلى دعوته «فكل نفس بما كسبت رهينة».

دروس من السفينة:

سفينة نوح التي جعلها الله تبارك وتعالى سببًا لنجاته ونجاة قومه من الغرق، تُقَدِّمُ لنا الكثير من الدروس والعبر والفوائد، فالله تبارك وتعالى أمر نبيه نوحًا عليه السلام بصنع السفينة: «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا»، بعد أن أخبره بالعقاب المرتقب للكافرين من قومه، وفي ذلك إشارة إلى أهمية أن يبذل الإنسان أسباب النجاة والنجاح والإنجاز في هذه الحياة، بعد التوكل على الله سبحانه وتعالى، فمن أراد قطف الثمرة، سواء أكانت دينية أو دنيويةً، فعليه بالعمل الجاد، والتخطيط السليم، والبدء بالخطوة الأولى، فكما قيل: طريق الألف ميل يبدأ بخطوة.

يصنع نوح عليه السلام الفلك امتثالًا لأمر الله سبحانه وتعالى، وهذا سِرٌّ من أسرار نجاح الأعمال والمشروعات، وهو البركة التي ترى أثرها في العمل، ولا تأتي البركة إلا إذا كان العمل خالصًا لله تعالى، ويحقق أمره عزَّ وجل.

الأعمال والمشروعات الكبيرة يتعرّض أصحابها في بداية التأسيس إلى نيران السخرية من السفهاء الحاقدين: «ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه»، وهذه النيران لا تثني أصحاب الهمم العالية عن المضي قدمًا في تحقيق أهدافهم، واستكمال مشروعاتهم، فصاحب المشروع الإصلاحي ذو همة

عالية تناطح السحاب، وتعجز نيران السخرية عن الوصول إليها، وهو يحمل همًّا كبيرًا يترفَّع عن سفاسف المستهزئين الساخرين، وهكذا كان نوح عليه السلام عندما قال: «فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم».

أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وأرشد الناس إلى الصراط المستقيم الذي فيه نجاتهم ونجاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، فكما جعل سفينة نوح سببًا لنجاة نوح ومؤمني قومه، فكذلك جعل لعباده أسباب النجاة، وبيّنها لهم في كتابه الكريم، وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم، والعاقل الفَطِن يحرص على الأخذ بأسباب النجاة، دون الالتفات إلى تثبيط المثبطين، واستهزاء المستهزئين.

قصة مريم بنت عمران

سورة مريم من الآية: ((16 - 29))

قصة مريم بنت عمران

موعد مع التكريم الرباني:

مريم بنت عمران والدة نبي الله عيسى عليه السلام، المرأة العابدة القانتة، العفيفة الطاهرة، التي أَحْصَنَتْ فرجها، وأَرْضَتْ ربها تبارك وتعالى، هذه المرأة التي نذرتْ نفسها للعبادة والطاعة، حتى أصبحتْ العبادة سِمة لهذه المرأة، وُصفت بها حين ذَكَرَ الله تعالى قصتها في كتابه الكريم: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا»، تفرَّغت للعبادة، وابتعدت عن الناس، ترجو رحمة ربها تبارك وتعالى وفضله، فحظيت بتكريم رباني رفعها مكانًا عليًا، حيث أرسل الله تعالى لها جبريل عليه السلام، فتمثّلَ لها بشرًا سويًا، ووهب لها غلامًا من غير زوجٍ في معجزة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى، وأعانها في موقف الولادة العصيب، وأنطقَ طفلها في معجزة أخرى ليظهر براءتها.

التكريم الربّاني لمريم لم يقتصر على حياتها، بل امتدَّ حتى بعد موتها، فخلَّدَ الله تبارك وتعالى ذِكرها في القرآن الكريم، حيث ذَكَرَ قصتها في أكثر من موضع في كتابه الكريم، وأنزل سورة كاملة سُميت باسمها، في قرآن يتلى إلى قيام الساعة، ووصفها في كتابه الكريم بالصِّدّيقة، وجعلها من أكمل نساء العالمين، وضرب بها المثل كامرأة صالحة قانتة عفيفة، لتتخذها نساء المؤمنين قدوة لهن.

المكانـة الرفيعـة التـي حَظِيـت بهـا مريـم بنـت عمـران، جعلـتْ اسـمها يُسـجل بأحـرف مـن نـور فـي سـجلّات الخالديـن، وبيّنـتْ لنـا أن اللّه تبـارك وتعالـى لا يضيـع أجـر مـن أحسـن عمـلًا مـن ذكـر أو أنثـى، وأن عبـادة الإنسـان الخالصـة للّه عـز وجـل تُعلـي مكانتـه فـي الآخـرة، ويحفظـه اللّه فـي الدنيـا بسـببها، ويجعـل لـه لسـان صـدق، وذِكـرٍ حسـن.

فاحـرص علـى إخـلاص العبـادة للّه تعالـى، واجعـل حياتـك ومماتـك وسـائر أعمالـك قربـاتٍ تتقـرب بهـا إلـى اللّه عـز وجـل، وتَرَقّبْ التكريـم الربّانـي الـذي يحجـز لصاحبـه مكانًـا فـي سـجلات الخالديـن تفـوق لوحـات الشـرف الدنيويـة مجتمعـة.

جدار الستر:

امتـدحَ اللّه تبـارك وتعالـى عِفَّـةَ مريـم بنـت عمـران فـي كتابـه الكريـم فقـال: «ومريـم ابنـة عمـران التـي أحصنـت فرجهـا فنفخنـا فيـه مـن روحنـا»، هـذه العِفَّـة التـي تجلّـت عندمـا أرسـل اللّه تعالـى إليهـا جبريل علـى هيئـة بشـر، فاسـتعاذت مريـم منـه، لأنهـا تـراه رجلًا أجنبيًـا عنهـا، وفرضـتْ عليهـا عِفَّتُهـا جـدارًا مـن السـتر لا تتجـاوزه فـي تعاملهـا مـع الرجـال، تحفـظ بـه نفسـها عـن الفواحـش، وسـمعتها عـن التشـويه.

وعندمـا أمـر اللّه تعالـى بـأن يكـون لمريـم ولـد مـن غيـر أبٍ فـي معجـزة تـدل علـى قـدرة الخالـق سـبحانه وتعالـى، حملـتْ مريـم بابنهـا عبـد اللّه ورسـوله عيسـى عليـه السـلام، وابتعـدتْ عـن أهلهـا

وقومها حفاظًا على سمعتها النّاصعة من الشكوك والتشويه، حتى حان موعد ولادتها، وبدأت تشعر بآلام المخاض، وتمنّتْ العابدة الناسكة الموت على أن تعيش لحظات تسمع فيها اتهامات القوم لها في شرفها وعرضها، فقالت: «يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا»، ولكن الله تبارك وتعالى ربط على قلبها في هذه اللحظات العصيبة، ووضعتْ ابنها عيسى، وامتثلتْ المرأة الطاهرة العفيفة لأمر ربها تبارك وتعالى، وأتتْ بولدها تحمله إلى قومها، فثارت ثائرة القوم، فمنهم من ينكر عليها فعل الفاحشة التي لم تَعرفْ لها طريقًا في يوم من الأيام، ومنهم من يتهمها بتشويه تاريخ أهلها المُشرِّف، وفي هذه اللحظات الصعبة أشارت مريم إلى ولدها، واستنكر القوم فعلها، ولكن الله تعالى أنطقَ الطفل، الذي تحدَّثَ في مرافعة دافع فيها عن والدته الطاهرة، وألجم ألسنة المشككين، وأظهر براءة أمه من التهم التي رماها بها القوم.

تُعلِّمنا مريم بنت عمران أن العفة هي أغلى ما تملكه المرأة، فلذلك تحرص كل الحرص على أن تحافظ على عفتها وطهارتها في كل الأحوال والظروف، وأن المرأة بيدها أن تكتب تاريخ أهلها وأسرتها، فإن كانت عفيفة طاهرة تتخذ من الستر غطاءً لها، حفظت سمعتها، وكتبت تاريخًا مشرفًا لأهلها، وإن فرطت في عفتها وحيائها، شوهت تاريخ أهلها، وجلبت لهم العار .

هو عليَّ هين:

أخبر جبريل عليه السلام مريم بأنه رسول من الله تعالى ليَهَبَ لها غلامًا زكيًا، وهي المرأة التي لم يسبق لها الزواج، فاستغربت من ذلك، وقالت: «أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيًا»، فردَّ عليها جبريل مبينًا لها بأنَّ من خلق البشر والسماوات والأرض لا يعجزه أن يخلق غلامًا من غير أبٍ، فقد خلق آدم من قبل من غير أب وأم، وخلق حوّاء من ضلع آدم، فقال لها: «كذلكِ قال ربكِ هو عليّ هين»، سبحان الخالق البارئ القادر على كل شيء، والذي لا يعجزه شيء.

عَلِمَتْ مريم أنها ستواجه موقفًا عصيبًا يبدأ من آلام المخاض وهي وحيدة بعيدة عن أهلها وقومها، مرورًا بمواجهة قومها وهي تحمل ولدها، وهم يعلمون أنها ليست متزوجة، وقد عُرِفتْ بطهارتها وعفّتها وتعبّدها، وهذه المخاوف مبنيةٌ على المقاييس البشرية، ولكنها تتغير وتتبدد إذا تدخلت الإرادة الربّانية، التي تقول للشيء كنْ فيكون، واتَّضَحَ ذلك عندما جاء مريم المخاض عند جذع النخلة فقالت: «يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا»، كانت مريم تعاني من آلام المخاض، وتفكر بمواجهة قومها بعد الولادة، لحظات ثقيلة، تجتمع فيها الآلام الجسدية والنفسية، هَوَّنتها رسائل الطمأنينة التي وصلت إلى مريم لتعيد إليها الثقة والأمان النفسي وراحة البال، «فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا، فكلي واشربي وقرّي عينًا»، فسكنتْ

آلام الجسد الذي استعاد عافيته، وسرت الطمأنينة في النفس فملأتها ثقة، وتحقَّقَ الوعد الرباني بإنطاق الطفل ليشهد على براءة أمه الصدّيقة.

كُنْ مع الله سبحانه وتعالى ولا تبالِ، مهما ساءت الظروف من حولك، وأحاطت بك الهموم والمخاوف من كل جانب، فمَن كان مع الله سبحانه وتعالى، ورفع شكواه وهمومه إلى ربه، وأحسن به الظن، فإنه سبحانه سيبدل بخوفه أمنًا، وبهمومه راحةً وفرجًا، وبمرضه شفاءً وعافيةً، الجأ إلى ربك إذا حَزَبَكَ أمر يُعكر صفو حياتك، ولا تجعل في نفسك منفذًا يتسلل منه اليأس إليها، بل عِشْ حياتك هانئًا، وابذل الأسباب في سبيل تحقيق ذلك، ولا تنشغل بالنتائج، فاللطيف الخبير سيجعل لك من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، فمريم التي تعاني آلام المخاض، طلب منها المَلَك بذل السبب «هزي إليك بجذع النخلة» فأتاها الكرم الرباني.

ولا تشغل بالك وترهق تفكيرك بكلام الناس واتهاماتهم إذا اتخذت موقفًا يُرضي الله تبارك وتعالى، فإذا كنت حريصًا على إرضائه سبحانه، سيتكفل بكَفِّ ألسنة الناس عنك، وسيحفظك من شرورهم واتهاماتهم، كما أظهر براءة مريم.

خط الدفاع الأول:

كانت مريم معروفة بحيائها وعفتها وعبادتها، وحين ابتعدت عن قومها، وجاءها الملك على هيئة بشر، ولم تكن تتعامل مع

الرجال الغرباء عنها، استعاذت بالله سبحانه وتعالى منه: «إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا»، واستخدمت مريم أهم سلاح تملكه في مواجهة المخاطر المحتملة التي قد تتعرض لها، وهو سلاح الاستعاذة بالله تعالى، والاستعاذة هي اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى لدفع الشر عن الإنسان.

توفيق الله تعالى لمريم جعلها تستعيذ به عزّ وجل ليصرف عنها السوء، فاللجوء إلى الله عز وجل، والاستعانة به، والاستعاذة به من شر كل ذي شر، من أهم الأمور التي يعتصم بها المسلم عند تعرضه للمخاطر.

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تحث المسلم على الاستعاذة بالله تعالى، منها ما يتعلق بالاستعاذة من أصل الشرور، والعدو الأول للإنسان، الشيطان الرجيم، حيث قال تعالى في كتابه الكريم: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم»، وأنزل سبحانه وتعالى سورة الناس، التي تشمل استعاذة المسلم بربه تعالى من الشيطان الرجيم وشره ووسواسه وفتنته، ومن شر الجن والناس، وفي سورة الفلق يأمرنا تبارك وتعالى أن نستعيذ به ونلجأ إليه ونعتصم به ليقينا من شر ما يكون في الليل، ومن السحر والحسد، وحثنا رسولنا الكريم على المداومة على قراءة هاتين السورتين العظيمتين في الصباح والمساء لتكون لنا درعًا واقيًا يدفع عنّا الشرور بإذن الله تعالى.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ من عدة أمور في أدعيته المأثورة، التي علّمها لأمته؛ فقد استعاذ صلى الله عليه وسلم من الهَمِّ والحزن، والجبن والكسل، ومن قهر الرجال، وزوال

النعم، وتَحَوُّل العافية، ومن الجنون والجذام، ومن سيئ الأسقام، ومن أمور كثيرة، نقتدي به صلى الله عليه وسلم في الاستعاذة منها في أدعيتنا.

الاستعاذة خط الدفاع الأول عن المسلم في وجه ما يتعرض له من شرور وفتن، فالموفق من اتخذها سلاحًا يتحصن به، فيلجأ إلى الله تبارك وتعالى، ويعتصم به، ويفرّ إليه، عند تعرضه للشرور والفتن والمعاصي والشهوات والشبهات.

قصة عيسى عليه السلام

سورة مريم من الآية: ((30 - 37))

سورة المائدة من الآية: ((72 - 81))

قصة عيسى عليه السلام

حديث المَهْدِ:

الله تبارك وتعالى خَلَقَ عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام من أم بلا أبٍ، فكان حَمْلُ أمِّهِ به معجزة، وفي مخاض ولادتها معجزةً، وفي حديثه في المهد معجزة، وفي مسيرة رسالته ونبوته معجزات تدل على قدرة الخالق المدبر، ويهتدي بها التائه الحائر، وتقيم الحُجَّةَ على الكافر المعاند.

في حديث المهد المُعْجِز، يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله سبحانه وتعالى الواحد الأحد، ليقطع دابر كل دعوةٍ للشرك بالله عزَّ وجل، فيقول مجيبًا عن والدته ومعلنًا براءتها: «إني عبد الله»، لسُت إلهًا، ولا شريكًا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، بل عبدًا من جملة عباد الله تعالى من البشر، شرّفني بالرسالة والنبوة، وأمرني بتبليغها: «آتاني الكتاب وجعلني نبيًا»، وتوالتْ نعمه وأفضاله عليَّ: «وجعلني مباركًا أينما كنت»، ومن تمامِ عبوديتي لله سبحانه وتعالى، وإخلاصي في الطاعة: «أوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا»، وأوصاني بما أوصى به غيري من البشر: «وبرًا بوالدتي»، وأكرمني بمحاسن الأخلاق وطيب الخِصال «ولم يجعلني جبارًا شقيًا»، ثم يؤكد لهم عليه السلام طبيعته البشرية التي لا تختلف عن غيره من البشر الذين يمرّون بمحطات الحياة المتتالية من ولادةٍ وموتٍ وبعثٍ: «والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا»، هكذا أعلن عيسى

عليه السلام في مهده عن عبوديته الخالصة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ليقطع الطريق على كل الادعاءات الباطلة التي ستظهر في المستقبل.

هذا الحديث الصريح الواضح المُعْجِز الذي تكلَّمَ به المسيح عليه السلام يهدم دعاوى النصارى المحرَّفة، ويُبطل أكاذيبهم، ويبيّن فساد عقيدتهم التي تزعم بأن المسيح ابن الله، وأن الله تعالى ثالث ثلاثة سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، فأصبح حديث المهد وثيقةً تحمل في طياتها أدلة التوحيد الدامغة، وتشهد على تحريف المكذبين المفترين، الذين بدّلوا دينهم، وأشركوا بربهم سبحانه وتعالى.

التوحيد منجاة:

الغُلو في الدين بوابةٌ ولج منها الشرك إلى عقيدة النصارى، فتارةً ينسبون لله عز وجل الولد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا فيقولون: إن المسيح ابن الله، وتارةً يقولون إن المسيح هو الله: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم»، وتارةً أخرى يدّعون بأن الله ثالث ثلاثة: (الله - عيسى - مريم) سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة».

هذه التخبطات العقدية، والشطحات الشركية، كانت نتيجةً لغلوهم الباطل الذي دفعهم لأن يقولوا ما قالوه في المسيح وأمه، فضَلُّوا وأضَلُّوا، ولو كانوا صادقين في حبهم لعيسى عليه السلام واتباعه، لاستجابوا إلى دعوته الخالدة، ونصيحته الصادقة، عندما

حذرهم وقال: «إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار»، هذه دعوة عيسى، دعوة العلم والتوحيد، ومَن يَحِد عنها، ويتبع أئمة الضلال والشرك، فإن مأواه النار، ولن ينفعهم أحد من أئمة الضلال الذين زيَّنوا لهم طريق الباطل، وصدّوهم عن الصراط المستقيم الذي كان مُمهَدًا أمامهم: «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم».

الغلو في الدين أوقعَ النصارى في براثن الشرك، وقذف بهم في دائرة الباطل، وهكذا الغلو لا يأتي بخير، ولم تسلم منه أمة من الأمم، فالغلو في الصالحين كان سببًا من الأسباب التي دفعت بعض الناس إلى ارتكاب الأفعال المنافية لعقيدة التوحيد من: استغاثة واستعانة بغير الله تعالى، وتَبَرُّك بالأموات، وطواف حول القبور، وهذه الأمور تخدش العقيدة، وتنافي التوحيد الخالص، وتلقي بصاحبها إلى التهلكة، ولذلك كانت عقيدتنا الوسطية القائمة على توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة والاستعانة والاستغاثة والدعاء والتوكل، هي صمام الأمان الذي يحفظنا من الشبهات والأفعال والأقوال المُضِلّة.

آية قام بها نبينا ليلة كاملة:

يسأل الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله»، وفي هذا السؤال توبيخ للنصارى الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وإن المسيح هو الإله، فكان رد عيسى عليه السلام على هذا السؤال يجمع بين تنزيه

الله سبحانه وتعالى، والبراءة من المشركين وادّعاءاتهم، والأدب في الحديث مع الله عز وجل، والاعتراف له تعالى بالعلم الواسع: «قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب».

ثم يواصل عيسى عليه السلام بيان دعوته إلى التوحيد، ومنهجه القائم على البراءة من الشرك والمشركين «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم»، ويعترف لله عز وجل بتمام العلم بالسرائر والضمائر والظاهر والباطن، ويختم عيسى عليه السلام بقوله: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»، فسبحان العزيز العادل في حكمه وعقابه للمجرمين، الحكيم في توفيق عباده للتوبة النصوح، فيغفر لهم ويدخلهم جناته.

إذا فَتَرَتْ نفسك عن قيام الليل، فتوقَّفْ عند هذه الآية العظيمة كثيرًا: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»، واعلم أن نبيك صلى الله عليه وسلم قام ليلةً كاملةً حتى أصبح وهو يردد هذه الآية الكريمة، واسأل نفسك عن سبب ذلك، لا شك أن السبب هو تدبر النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاني هذه الآية العظيمة، من تسليم الأمور وتفويضها لله تعالى، وقدرته العظيمة، وعدله وعزته ورحمته ومغفرته وحكمته، ثم انظر إلى ثمرة تدبر النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الآية الكريمة في قيامه، رسول الله بعدها دعا ربه دعاء المحب المشفق على أمته وهو يبكي كما جاء في صحيح مسلم فقال: (اللهم أمتي

أمتي)، فجاءت الاستجابة الربانية لدعائه برحمة هذه الأمة: (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)، هذه الشفاعة العظيمة، والرحمة النابعة من قلب النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، تدفعنا إلى الإكثار من الصلاة عليه، والاقتداء بسنته، ومنها تدبر آيات كتاب الله الكريم، وقيام الليل، والتقرب إلى الله تعالى بالدعاء.

قصة قارون

سورة القصص من الآية: ((76 - 83))

قصة قارون

اختبار الكنوز:

كان قارون رجلًا ثَرِيًّا من قوم موسى عليه السلام (بني إسرائيل)، وتَعَرَّضَ لاختبار يقيس إيمانه وثباته، فرسب فيه رسوبًا جعله عبرةً لمَن عاصره، ومن يأتي بعده، وذَكَرَ الله سبحانه وتعالى قصته في القرآن الكريم، ليتعظ الناس بها، ويتجنبوا مصير قارون، والأسباب الذي أدت به إلى هذا المصير.

أنعم الله سبحانه وتعالى على قارون بنعمة عظيمة: «وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة»، هذا الابتلاء بالنعم، اختبار من الله سبحانه وتعالى لقارون، فإنْ شَكَرَ المُنعم، وحَدَّثَ بالنعمة، ولم يتكبر على خلق الله تعالى، وأنفق منها وتصدق، فقد اجتاز الاختبار بنجاح، وإن فرّط وتكبّر، وتفاخرَ وتجبّر، ولم يعترف بفضل الله تعالى عليه، فقد فشل في اجتياز هذا الاختبار.

قارون استعلى على قومه، ونسي الدار الآخرة، وأفسد في الأرض، فأصبح المال نقمةً عليه لا نعمة، وأثقلت كاهله الكنوز الثقيلة التي كان يمتلكها في الدنيا، وهَوَتْ بموازينه في يوم الحساب، أطغاه ماله، فحاد عن طريق الحق، ولم يستمع إلى نصيحة المشفقين المحبين، فخسف الله تعالى به الأرض عقابًا، ولعذاب الآخرة أكبر.

المال سلاح ذو حدّين، فمَن أنفقه في سبيل الله تعالى، ورسم

به البسمة على وجوه الأيتام، وأزاح به الهموم الجاثمة على صدور المحتاجين، كان ماله سببًا في سعادته في الدنيا، وزيادة رصيده من الحسنات في الآخرة، ومَن بعثر ماله على الشهوات المحرمة، واستخدمه في معصية الله تعالى، كان ماله سببًا في شقائه في الدنيا، وخسارته في الآخرة.

المؤمن يجعل نصب عينيه السؤال الذي سيُوَجَّه إليه يوم القيامة: وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه، فيحرص على الكسب الحلال، والإنفاق الطيب، ويَحْذَرُ من فتنة المال التي أَضلَّتْ الكثير، ويراعي الله تعالى في هذا المال حتى لا يعض أصابع الندم يوم يقول المفرط في ماله: «ما أغنى عني ماليه».

الفرح المذموم:

قارون أظهر بَطَرَهُ وتعاليه وتكبره، ولم تزده ثرواته الطائلة إلا غرورًا وإفسادًا في الأرض، ودفعه هذا الغرور إلى الفرح ومباهاة الناس في زينته، وهذا الحال حرّك الدعاة الناصحين من قومه الذين ساءهم طغيانه وإفساده وعتوِّه في الأرض، فقالوا له: «لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين»، نصيحة بعدم الفرح! ولكن أي فرح هذا الذي نهوه عنه؟

الفرح الذي نهوا قارون عنه هو الفرح المذموم الناتج عن غرور صاحبه بماله، الذي ينسيه شُكْرَ نعمة ربه تعالى، ويجعله أسيرًا لأمواله وشهواته وهواه، فتصبح الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، فلا يتقي الله تعالى، ولا يتواضع لعباده.

وأما موقف الإسلام من الفرح، فهو موقف معروف ثابت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله تبارك وتعالى يأمرنا بالفرح: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا»، وهذا هو الفرح المحمود، الفرح بالإسلام والقرآن، ونبينا عليه الصلاة والسلام يذكر فرحة الصائم كمثل آخر من أمثلة الفرح المحمود، وهذه الأقسام من الفرح، أباحها الإسلام، وحثَّ عليها في نصوصه.

افرَحْ وأَفْرِحْ مَن حولك، ولكن احرص على أن يكون فرحك محمودًا محبوبًا عند الله سبحانه وتعالى، واحذر الفرح الذي يطغيك ويلهيك، ويعمي بصيرتك، ويطمس ملامح الإيمان التي تزين نفسك، فهذا النوع من الفرح هو المذموم الممنوع شرعًا، والذي يترتَّب عليه عدم محبة الله تعالى لصاحبه.

الفرح شعور إنساني، وغريزة بشرية، يحتاج إليه الإنسان في حياته، وجاء الشرع الحكيم ليرشدنا إلى ما هو محرم منه ومذموم، وما هو مندوب منه بل ويصل إلى درجة الوجوب، فالأسباب الباعثة على الفرح هي التي تحدد الحكم عليه، وفي قصة قارون مثال واضح على الفرح المذموم المحرَّم، وفي كثير من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة أمثلة كثيرة للفرح المحمود.

نصائح من ذهب:

طغيان قارون، وإعجابه بأمواله وأملاكه وثرواته، دفع كوكبة صادقة من الصالحين المصلحين إلى نصحه، وتحذيره من عاقبة البطر والفساد، وإرشاده إلى طريق الحق والخير والهدى، وهذا دأب المصلحين في كل زمان.

وجَّهَ الناصحون أربع نصائح إلى قارون، وكانت البداية بقولهم: «وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة»، استثمر ما آتاك الله تعالى من أموال وثروة في تجارة لا تعرف الخسارة أبدًا، إنها التجارة مع الله عز وجل، أخرجْ زكاة مالك، وأنفق منه على الفقراء والمحتاجين، واجعله سببًا في تفريج الكُرب، وإغاثة الملهوفين، وكفالة الأيتام، وإطعام الجائعين، وهذه نصيحة عامة لا تقتصر على الأموال فقط، بل تمتد إلى كل نعمة منحها الله تعالى للإنسان من: أموال، وعلم، وجاه، وعلاقات، وشفاعة، وتشمل كذلك المشاعر مثل: الحب، والحزن، والفرح، وغيرها، فعلى الإنسان أن يجعل الدار الآخرة هي المُراد والمُبتغى، وأن تكون أعماله خالصة لله سبحانه وتعالى.

«ولا تنسَ نصيبك من الدنيا»، هذه هي النصيحة الثانية، التي تدعو إلى الاعتدال في كل أمور الحياة، فديننا الحنيف يحث على بذل الجهد والاجتهاد للفوز في الدار الآخرة، ولكنه يخصص للإنسان نصيبًا من الدنيا، فلا إفراط ولا تفريط، فالأهل لهم حق عليك، ولبدنك حق، وخير قدوة لنا الرسول الكريم الذي كان يصوم ويفطر، ويصلي وينام، ويتزوج النساء، صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق، وسيد ولد آدم، يضرب المثل لأمته باعتداله في كل الأمور.

«وأحسن كما أحسن الله إليك»، تذكَّرْ نعم الله تعالى عليك، وإحسانه إليك، واجعل الإحسان غاية تنشدها في عبادتك وطاعتك لله تعالى، فهي أعلى مراتب العبودية، بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأحسن إلى خلقه بفعل

الخيرات، والتعامل معهم بالأخلاق الحسنة، فكل ذلك يقرّبك من ربك تعالى.

«ولا تبغِ الفساد في الأرض»، ولا تجعل سعيك من أجل الحصول على الثروة والمال والقوة، والوصول إلى السلطة والجاه والشهرة، سببًا يدفعك إلى الفساد والإفساد في الأرض، فالله تبارك وتعالى حذَّرَ من الفساد والمفسدين، وبيّن عقوبتهم في الدنيا والآخرة، وختموا نصيحتهم بالقول «إن الله لا يحب المفسدين»، وأي حرمان أشد من عدم محبة الله تعالى للإنسان.

لا تنخدع بالمظاهر:

قرّر قارون -الذي أطغاه المال، وأعمت بصيرته الثروة الكبيرة- أن يستعرض ثروته أمام الناس متباهيًا بها، ومستعليًا على قومه، فخرج متزيِّنًا مفتخرًا بثرائه الفاحش، والقوم يراقبون هذا المشهد الذي وصفه الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قائلًا: «فخرج على قومه في زينته»، ومن خلال هذا الاستعراض أراد قارون أن يجذب أنظار الناس إليه، ويصبح حديث المدينة.

في هذا المشهد برز فريقان؛ الفريق الأول تعلَّقتْ قلوبهم في الدنيا، وأصبحت غاية أمانيهم التمتع بملذّاتها، والتنعم بالأموال والثروات، هؤلاء غرّهم منظر قارون عندما خرج عليهم، فنظرتهم لا تتعدى المشهد الماثل أمام أعينهم، ولا يتفكرون في المصير والمآل والعواقب، فكشفوا أمنيتهم: «يا ليت لنا مثلما أوتي قارون»،

خدعهم بريق المال، وأصبحوا أسرى اللحظة التي يعيشونها، وظنوا أن المال هو السبيل إلى السعادة في هذه الدنيا.

وأمّا الفريق الثاني، فهم أهل العلم والعقل، الدعاة الناصحون، الذين عرفوا حقيقة الدنيا، وتفكّروا في مصير الناس، وارتقت هممهم إلى المطالب العليا، والغايات السامية، وأصبحت الدار الآخرة هي همهم، فقالوا «ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا»، فنصحوا الفريق الأول بأن يرتقوا في تفكيرهم، وينتقلوا من سطحية الانبهار في الدنيا وزينتها ومباهجها، إلى عمق التفكر في العواقب والنهايات، والانشغال بما هو خير للإنسان من زينة الحياة الدنيا وزخرفها.

النتيجة كانت: «فخسفنا به وبداره الأرض»، حلَّ العذاب بقارون، ولم يجد له نصيرًا، وصار الهلاك مصيره، وأصبح أتباع الفريق الأول الذين تمنّوا مكانه وملكه، يقولون «ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر»، فعلِموا أن النعيم الذي كان يتمتع به قارون، ليس ميزة يتفوق بها على غيره، بل هو اختبار وابتلاء، لم يُحسن أداءه، فحقَّ عليه العذاب.

لا تنخدعْ بالمظاهر، ولا تغرنك الحياة الدنيا وزينتها، ولا تتمنَّ ما فضل الله تعالى به بعض الناس على بعض من زينة الحياة الدنيا، بل اجعل الهدف الأسمى والغاية الكبرى أن تفوز برضا الله عَزّ وجل، ونيل ما وعد به المؤمنين من خير وثواب؛ فمصيرُ المال والجاه والثروات والمتاع في هذه الدنيا الزوالُ والفناءُ.

الجزاء من جنس العمل:

تكبَّرَ قارون على الناس بماله، وأصبح ينظر إليهم نظرة احتقار، ويرى أن ثرواته الطائلة، وكنوزه المليئة سبب كافٍ لرفعة مكانته، وعلو مقامه، وعاش مغرورًا متكبرًا في الأرض، حتى وصل إلى درجة الجحود بنعمة الله تعالى عليه، والإفساد في الأرض، فكانت عاقبته من جنس عمله، فكما تكبَّرَ على عباد الله تعالى، خسف الله عزَّ وجل به إلى أسفل سافلين، ليرى المنبهرون به وبثروته وزينته أن الأمر بيد الله تعالى، وأن عاقبة الكِبر والتعالي السقوط والانحطاط.

انفضَّ عنه الأنصار، وتركه الأتباع والمريدون، وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يحمدون الله تعالى على عدم شمولهم بالعقاب الذي حلَّ بقارون، فما أغنى عنه ماله من العذاب شيئًا، ولم تمنعه ثروته من مصيره المحتوم، وهذا جزاء كل من تكبّرَ وعلا في الأرض بغير الحق، ونشر الفساد فيها.

الله تبارك وتعالى يختم قصة قارون بالآية الكريمة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا»، فالفوز في الدار الآخرة من نصيب المتواضعين الذين يخفضون جناحهم للمؤمنين، ولا يتكبرون على عباد الله سبحانه وتعالى، فالجزاء من جنس العمل، فمن تواضعَ لله تعالى رفعه، وأيُّ رفعةٍ أعلى قدّرًا من الفوز بالجنان، ونيل رضى الرحمن في الدار الآخرة.

الدرس الذي نستخلصه من هذه الوقفة، أن الكِبر والتباهي على الناس، والتفاخر عليهم، والعلو في الأرض، ونشر الفساد،

امـراض يجـب علـى مَـن ابتُلِـيَ بهـا أن يسـارع إلـى العـلاج المتمثـل فـي الاعتـراف بنعمـة الله تعالـى، وتربيـة النفس علـى خُلُق التواضـع، وعـدم الإفسـاد فـي الأرض، فالتواضـع فـي الدنيـا سُـلَّمٌ يرتقـي بـه الإنسـان إلـى أعلـى الدرجـات والمراتـب فـي الآخـرة.



قصة سليمان عليه السلام مع النملة

سورة النمل من الآية: ((15- 19))

إيجابية نملة:

نبي الله سليمان عليه السلام آتاه من المُلك ما لم يؤتِ أحدًا غيره، وسَخَّرَ له خلقه من الإنس والجن والطير، وفي يوم حشد سليمان عليه السلام جيشه العظيم المنظم، وقاده إلى وادي النمل، فشاهدت نملة هذا الجيش الكبير المتجه إلى قومها، وسارعت إلى اتخاذ خطوات تؤمن من خلالها لقومها الحماية، هذه الخطوات التي اتخذتها النملة حريٌّ أن تُدرَّسَ في مناهج الإدارة، وأن تكون مادة أساسية في دورات التدريب على إدارة الأزمات.

الجيش الكبير المنظم لم يؤثر في عزيمة النملة، فلم تشعر بالخوف، ولم يجد الوهن طريقًا إليها، وخطورة الموقف لم تدفعها إلى التفكير في نفسها، والحرص على النجاة بمفردها، بل شعرتْ بالمسؤولية تجاه قومها، وسارعتْ إلى إطلاق صيحة تحذير لتنبيه قومها، فوجّهت خطابًا عامًا إلى مجتمع النمل، لم تستثنِ منه فئة أو مجموعة، ولم تخصصه للمقربين أو المحبين، فقالت بلسان المحب الناصح : «يا أيها النمل»، فسَرَتْ تلك الصيحة التحذيرية في مجتمع النمل توقِظ النائم، وتنبه الغافل، وقدّمتْ النملة درسًا رائعًا في حب الخير للغير، والشعور بالمسؤولية، والمبادرة الإيجابية.

لم تكتفِ النملة بإطلاق صيحة التحذير، والشكوى من الواقع، بل قدّمت حلًا عمليًا يساعد قومها على تجاوز العاصفة المقبلة عليهم، فقالت «ادخلوا مساكنكم»، فإذا دخلوا مساكنهم نجوا من الجيش العظيم المقبل عليهم.

ضربت هذه النملة أروع الأمثلة في الشعور بالمسؤولية، وإنكار الذات، والحرص على المجتمع، وتقديم المبادرات والحلول، وكم تحتاج مجتمعاتنا اليوم إلى أصحاب المبادرات الإيجابية، الذين يدفعهم الشعور بالمسؤولية، والإحساس بالمخاطر التي تحيط بمجتمعاتهم، إلى تقديم المبادرات الإيجابية، والحلول العملية التي تنقذ المجتمع، وتساهم في حَلِّ مشكلاته، ولا يكتفون بالتذمر والشكوى، ولا يعتذرون بالعجز وعدم الاستطاعة، فذَكَرَ الله تبارك وتعالى هذه القصة في كتابه الكريم، لنعتبر من موقف هذه النملة التي لم تتخذ من صغر حجمها، وضعف إمكانياتها ذريعة للتَّخلي عن مسؤوليتها المجتمعية.

درس أخلاقي:

النملة التي أرسلت رسالة تحذير إلى قومها، وعزَّزَتْ الرسالة بمقترح عملي يقدم طوق النجاة لقومها من الخطر المُقْبِلِ عليهم، رسَّختْ كذلك قيمة نبيلة، ودرسًا أخلاقيًا، وذلك بعد أن أتبعت تحذيرها بعبارة تدل على حسن ظنها بسليمان وجيشه، فقالت: «لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون».

قدّمت النملة حسن ظنها بسليمان عليه السلام وجنوده فقالت: «وهم لا يشعرون»، فالتمست لهم العذر، ونفت عنهم نية التعمُّد في إلحاق الأذى بمجتمع النمل، وبذلك تضرب لنا النملة درسًا جديدًا في سلامة الصدر، وتفسير المواقف تفسيرا طيبًا، وتقديم حسن الظن بالآخرين، دون التفتيش في النوايا، أو إتاحة المجال للشيطان ليبث العداوة والبغضاء.

ونحن اليوم بحاجة إلى هذا الخُلُق الكريم (إحسان الظن بالآخرين)، والتماس الأعذار لهم، والتجاوز عن هفواتهم وأخطائهم، وتفسير مواقفهم تفسيرًا حسنًا، فسلامة الصدر تجاه الآخرين، وعدم توقع السوء والأذى منهم، يطرد وساوس الشيطان، ورغبات النفس الأمارة بالسوء، ويجعل الإنسان يعيش في راحة بال، واطمئنان نفس، وسعادة غامرة.

كم أفسد سوء الظن بالآخرين العلاقات، وأوغر الصدور، وبثّ العداوة والبغضاء والكراهية بين الناس، وتسبّبَ في قطع الأرحام، وعاد على صاحبه بالهَمِّ والحزن والقلق.

يقول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا».

سلامة الصدر صمّام أمان للعلاقات بين الأفراد في المجتمع المسلم، وإحسان الظن بالناس يسدُّ باب العداوات، ويطفئ نيران الحقد والكراهية التي يسعى الشيطان لإشعالها.

ابتسامة نبي:

النملة أدّت دورها، وسطّرَتْ مواقف خلّدها الله تبارك وتعالى في أحسن القصص، وأنزلها في قرآن يُتلى إلى قيام الساعة، فكل كلمة تلفظت النملة بها، وفهَّمَها الله تعالى نبيه سليمان عليه السلام، فيها عبر وعظات ودروس مستفادة للبشرية.

وكان ختام المشهد مع نبي الله سليمان، فبعد انتهاء النملة من إطلاق صيحة التحذير إلى قومها، واقتراحها عليهم طريقة للنجاة من المخاطر، والتماسها العذر لسليمان وجيشه، كانت ردة فعل نبي الله سليمان عليه السلام مليئة بالعبر والمواعظ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى حال نبيه سليمان بعد استماعه إلى حديث النملة فقال: «فتبسم ضاحكًا من قولها»، هكذا ردَّ النبي سليمان على حكمة النملة وحبها للخير وتضحيتها من أجل قومها.

الابتسامة عربون كسب القلوب، ورسالة اطمئنان تُكسب صاحبها محبة مَن حوله، وتكسر حاجز الشك بين الناس، وتذيب جليد الخلافات بين المتخاصمين، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بأن جعل الابتسامة في ديننا من فِعل المعروف الذي يؤجر عليه المسلم، فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق).

تصدَّق بابتسامتك على الفقراء والمساكين والمغتربين لتخفف عنهم معاناتهم، واجعلها برقية حب ومودة تكسب بها قلب زوجتك وأهلك، ولتكن وسيلة اتصال وتواصل مع أرحامك وجيرانك، وزيِّن

بها مُحَيّاك عند لقائك بالناس، فالابتسامة لها تأثير عجيب في نفوس الناس.

عبادة الشكر:

نبي الله سليمان عليه السلام، الذي سَخَّرَ الله تعالى له الرياح والإنس والجن، وعلّمه منطق الطير، وفهَّمه حديث النمل، يتوجه إلى ربه تبارك وتعالى داعيًا متضرعًا: «ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحًا ترضاه»، سليمان عليه السلام يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعينه على شكر النعم التي لا تُعد ولا تُحصى.

في غمرة النعم التي يتمتع بها سليمان، لم ينسَ عليه السلام شُكْرَ المُنعِم، ولم يُلهه مُلْكُهُ وسلطته وسيطرته عن ذلك، لأنه يعلم تمام العلم أنه بالشكر تدوم النعم، وتنمو وتزيد، ويحفظها الله تبارك وتعالى من الزوال، ويبعد عن صاحبها الغرور والكِبر والجحود،، فالشكر عبادة عظيمة، وتحتاج إلى توفيق من الله سبحانه وتعالى وإعانة، ولذلك سأل سليمان عليه السلام ربه تعالى أن يوفقه إلى عبادة الشكر، فقال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك، وأنبياء الله تعالى عليهم السلام كانوا يحرصون على أن يُضَمِّنوا هذا المطلب في دعائهم، فسليمان عليه السلام يقول ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان من دعائه: (اللهم أعنّي على ذِكرك وشكرك وحُسن عبادتك).

ثم يستكمل سليمان عليه السلام دعاءه، فيقول: «وأن أعمل

صالحًا ترضاه»، فسأل الله تعالى أن يوفقه للأعمال الصالحة، ويتقبلها منه، لأن الإنسان المسلم يشكر ربه تبارك وتعالى بالأعمال الصالحة «اعملوا آل داود شكرًا»، فالصلاة شكر، والصيام شكر، والصدقة شكر، والدعاء شكر، والذِكْرُ شكر، وكل عمل صالح يبتغي العبد به وجه ربه تبارك وتعالى هو من شكر النعم.

اجعل الأنبياء عليهم السلام قدوةً لك في شكرهم لله سبحانه وتعالى، واستعن بالله عزَّ وجل على شكره، واسأله أن يوفقك لعبادة الشكر باللسان والجوارح، وعَوِّدْ نفسك على شكر كل نعمة ينعم بها الرحمن سبحانه عليك، وتفقَّدْ نعم الله عليك، واشكره عليها قولًا وفعلًا، وإذا اعتراك الفتور يومًا، أو تقاعست عن شكر المُنعم، فتذكرْ من كانت لك فيه أسوة حسنة، وغفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فاجتهدَ رغم ذلك في عبادته وشكره وطاعته وقال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا).

قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد

سورة النمل من الآية: ((20 - 28))

كلكم راعٍ:

سليمان عليه السلام الذي آتاه الله علمًا وملكًا، وعلّمه منطق الطير، يتفقَّدُ جيشه العظيم، ويكتشف غياب الهدهد، ذلك الطائر المُميز، فيسأل: «ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين»، أدرك سليمان عليه السلام حجم المسؤولية العظيمة التي تقع على عاتقه كقائد، فتفقَّدَ جنده، وأجرى مسحًا دقيقًا مكّنه من اكتشاف غياب طائر واحد وهو الهدهد، وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على القيادة الناجحة، التي تهتم برعيتها، ولا تُفرِّق بين صغيرهم وكبيرهم، وتتعرَّف أحوالهم، وتتلمس حاجاتهم.

المسؤول الناجح، والقيادي المتميز، هو الذي يعيش بين موظفيه ومرؤوسيه، يكتشف مواهبهم، ويشجع إبداعاتهم، ويتعرَّف جوانب التقصير في أعمالهم، فيرشد المخطئ، ويكافئ المصيب، ويعاقب المسيء، وهذا ينطبق على المدير في عمله، والآباء والأمهات في بيوتهم، وكل من تولّى مسؤولية عامة أو خاصة.

وقال سليمان عليه السلام بعد تفقده للطير: «ما لي لا أرى الهدهد»، وهنا يضع يده على جانب من جوانب التقصير، وهو غياب الهدهد، وتخلّفه عن أقرانه، وهكذا المسؤول الناجح حين ينزل إلى الميدان ويتفقّد العمل، سيكتشف جوانب الخلل والتقصير، فقد يجد موظفًا مقصرًا في عمله، وآخر متخلفًا عن الحضور، وكذلك الأمر بالنسبة للآباء والأمهات، إذا تابعوا

رعيتهم (أبناءهم) فسيكون لسان حالهم: مالي لا أرى ولدي في المسجد، ومالي لا أرى ابنتي في صفوف المحتشمات، فالمتابعة والسؤال والبحث من مهام كل مسؤول: (كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته).

ثم قال سليمان: «لأعذبنه عذابًا شديدًا أو ليأتينّي بسلطان مبين»، وهنا تبرز المحاسبة الجادة، ومعاقبة المقصر في عمله، دون تعسف في استخدام الصلاحيات، ومع ترك المجال له ليدافع عن نفسه بالحجج والبراهين.

في هذا المشهد يضرب سليمان عليه السلام نموذجا رائعًا للقائد الحريص الحازم العادل مع رعيته.

التوحيد أولًا:

الهدهد كان في مهمة دعوية عظيمة، وعندما عاد أجاب نبي الله سليمان إجابة عجيبة، تجمع بين الفطنة والثقة، فقال «أحطتُ بما لم تحط به»، جاء بخبر قوم لم يكن يعلم عنهم سليمان، إنهم قوم سبأ، فبدأ الهدهد بإلقاء خطبة بليغة دافع فيها عن نفسه بالحجج والبراهين، وأظهر براءته أمام نبي الله سليمان، وكشف عن نبأ قوم تحكمهم امرأة، ولها عرش عظيم، وأتباع كثر.

ولكن هذه المشاهد العجيبة التي اطَّلعَ عليها الهدهد في رحلته الطويلة من الشام إلى اليمن لم تشغله عن قضيته المركزية، إنها القضية التي من أجلها خلق الله تبارك وتعالى الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، إنها قضية توحيد الله عز وجل، وعبادته

وحده لا شريك له، فقال: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله»، فلم يصف أي مشهد آخر، ولم ينتقد أي فعل غير هذا الأمر الشنيع الذي كان يفعله القوم، فدفعته حرقته إلى أن يخبر سليمان عليه السلام بهذا الأمر، ونحن في رحلتنا في هذه الحياة، تَمُرُّ علينا مشاهد عديدة من المخالفات الشرعية التي تغضب الله تبارك وتعالى، فهل تداعينا وتواصينا بالحق لننكرها بحكمة؟ وعملنا على إيصال أمرها لمن يستطيع إزالتها كما فعل الهدهد عندما أوصل نبأ قوم سبأ إلى سليمان عليه السلام؟

إن الهدهد داعية إلى توحيد الله عز وجل، ذو همة عالية، يحمل في نفسه هَمّ هذا الدين العظيم، دفعته فطرته السليمة إلى القول: «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض»، وهكذا أصحاب الفطر السليمة، والهمم العالية، الذين يحملون رسالة الإسلام، لا يعقدون اتفاقيات المهادنة مع المخالفات الشرعية، ولا يُطَبِّعون مع المنكرات التي تغضب الله سبحانه وتعالى، بل ينكرون المنكر، ويأمرون بالمعروف، ويرشدون الناس إلى طريق الحق والخير بالحكمة والدليل والبرهان الساطع.

ختم الهدهد مرافعته العظيمة بشعار التوحيد الخالد: «الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم»، قال المفسرون: أصدق كلمة قالها الهدهد هي: لا إله إلا الله، هذه الكلمة العظيمة التي يدخل الإنسان بسببها الإسلام، ويسأل المرء ربه تبارك وتعالى أن تكون آخر كلمة يتلفظ بها قبل خروج روحه، ويرددها المسلم عند كل أذان وفي كل صلاة، وتطمئن بها القلوب، وتسعد بها النفوس، فإذا تأمَّلتَ في هذا الكون الفسيح فقل: لا إله إلا الله، وإذا حاصرتك

الهموم والأحزان فقل: لا إله إلا الله، وإذا أردت الزيادة في الأجور والحسنات فقل: لا إله إلا الله.

أضلاع المثلث:

قَدَّمَ الهدهد أمام نبي الله سليمان مرافعةً مختصرةً رصينةً، استخدم فيها الأدلة والبراهين التي تثبت صِدْقَ أقواله، فرد سليمان عليه السلام على ما ذَكَرَهُ الهدهد بقوله: «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين»، لم يتخذ سليمان عليه السلام موقفًا سريعًا بناءً على كلام الهدهد، ولم يجعل الانطباع الأول يدفعه إلى تصديق أو تكذيب الهدهد، بل تمهَّلَ في اتخاذ القرار، حتى يتثبت ويتأكد من صدق كلام الهدهد.

هذا الموقف الحكيم من سليمان عليه السلام، يعطينا درسًا مهمًا في ضرورة التثبت والتبيّن قبل تحديد مواقفنا من أي قضية، والتأكد من أي معلومة تصل إلينا إن كانت صادقة أو كاذبة قبل اتخاذ القرارات المهمة، فالقرارات السريعة المتعجلة قد تؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه، إذا بُنِيَتْ على معلومات خاطئة، أو أنباء كاذبة.

وفي هذا الزمن، زمن التواصل الاجتماعي، تكثر الأخبار والمعلومات، وتنتقل بسرعة رهيبة، وتنتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، والواجب التثبت قبل النقل عملاُ بالآية الكريمة: «فتبينوا»، فكم من معلومة كاذبة مجهولة المصدر تسببت في تفريق الجماعات، وقطع الأرحام، وإفساد العلاقات، وبث البغضاء

والأحقاد بين الناس، وكم من خبر مُلَفَّقٍ ساهم في تشويه الشرفاء، وإسقاط القدوات، واتهام الأبرياء، وتخوين الأمناء المصلحين.

الإنصات والتثبت والتأنّي، أضلاع مثلث يحمي المجتمعات من نيران الأخبار الكاذبة، ويحفظ الأعراض من شرور الاتهامات المُغْرِضة، وتُميز الصادق وترفع مكانته، وتكشف الكاذب وتفضح وضاعته، وتساعد الإنسان على اتخاذ القرارات الصحيحة والمواقف السليمة.

قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ
سورة النمل من الآية: ((29 - 44))

أمرهم شورى بينهم:

وضع الهدهد تقريرًا مفصلًا بين يدي نبي الله سليمان، بيَّنَ فيه أهم الأحوال في مملكة سبأ، وسَلَّطَ الضوء على فساد معتقدهم، فقرّر سليمان عليه السلام أن يقوم بدوره الرسالي العظيم، وأرسل كتابًا إلى ملكة سبأ، يدعوهم فيه إلى التوحيد، فجمعتْ الملكة الملأ من قومها، وهم كبار القوم والسادة وأهل الرأي، وأخبرتهم بأمر الكتاب الذي جاءها من سليمان، وقالت: «يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون»، فطلبتْ منهم المشورة والنصح في هذا الأمر المهم الذي استجدَّ على مملكتهم.

هذا التصرف من ملكة سبأ يدلُّ على ذكائها وحكمتها وتقديرها لقومها، ورغبتها في استطلاع آراء أهل الاختصاص، والاستعانة بأصحاب الخبرات، قبل اتخاذ أي موقف، وخصوصا في هذا الحدث المفصلي الذي يحدد مصير الدولة والشعب.

الملأ من قومها ردّوا عليها بالقول: «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليكِ فانظري ماذا تأمرين»، فأَرجعوا الأمر إليها، وقدّموا لها دعمًا لا محدودًا عندما أظهروا استعدادهم للمواجهة إن رأت هي ذلك.

الشورى مبدأ إسلامي أصيل، حيث أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فقال: «وشاورهم في

الأمر»، وذَكَرَ سبحانه وتعالى أنها من صفات المؤمنين: «وأمرهم شورى بينهم»، وهي خير معين لمتخذ القرار، لأنها تكشف له ما خفي عنه من بعض الأمور، وتقدم له رؤية فنية تخصصية إذا استعان بأصحاب الخبرات والتخصص وأهل الكفاءة.

صاحب القرار يحتاج إلى إحاطة نفسه بمجموعة من أهل الرأي والحكمة والخبرة والاختصاص، يستأنس بآرائهم، ويسترشد بخبراتهم، ويستشيرهم قبل اتخاذ القرارات والمواقف المصيرية، وسواء أخذ برأيهم أم لم يأخذ، فإن مجرد الاستشارة وإشعارهم بأهمية دورهم تؤلف القلوب حوله، وتجعل قراراته أكثر مصداقية وقبولًا، لذلك عليك بالاستشارة، واحرص على انتقاء مَن تشاورهم، وخذ بآرائهم السديدة، فالشورى مكسب وليست خسارة، وكما قيل: ما خاب مَن استشار.

حكمة أنقذت أمة:

الملأ من قوم سبأ فوَّضوا الملكة لاتخاذ الرد المناسب على رسالة سليمان عليه السلام، وأظهروا استعدادهم لمساندتها في أي قرار تراه مناسبًا، ولكن الملكة لم تتسرع باتخاذ قرار قد يكلفها وقومها الكثير، ولكنها تَأَنَّتْ، ووزنتْ الأمور، ورجَّحَتْ بين المصالح والمفاسد، وتوصّلتْ إلى ضرورة عدم مواجهة سليمان وجيشه، بعد أن عرفت قوته وإمكاناته، فجنَّبَتْ قومها مواجهةً عبثيةً، وهلاكًا محققًا.

تَجَنُّبُ المواجهة، والانسحاب من بعض المعارك، والتأنّي في اتخاذ القرارات المصيرية، وتقدير موازين القوى، والترجيح بين المصالح والمفاسد، من صفات القائد الحكيم الناجح، فكثير من المواجهات التي خاضها الأفراد في حياتهم، أو الدول والمجتمعات بين بعضهم بعضا، كانت بسبب التسرّع في اتخاذ القرار، واستعجال المواجهة دون دراسة، والحماسة غير المنضبطة، فخلّفتِ الخراب والهلاك والدمار والخسائر الفادحة.

الخطوة الثانية التي اتخذتها ملكة سبأ بعد أن جنّبتْ قومها المواجهة، هي معرفة حقيقة هذا الملك والقائد سليمان عليه السلام، فقالت: «وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون»، فالملكة بحكمتها تعلم أن للهدية أثرًا كبيرًا في نفوس الناس، فأرادتْ أن تعرف ردة فعل نبي الله سليمان، فلعلّ هذه الهدية تكون سببًا في ثَنْيِهِ عن نيته مهاجمة مملكتها.

الهدية رسول سلام بين المتخاصمين، ولَبِنَةُ إصلاحٍ ترمِّم جدار العلاقات المتصدع بين الأرحام والأقارب والأصدقاء، وغيمة خير تغيث القلوب الجافّة، فتملؤها محبة ومودة بعد الجفاء، وصدق رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال في الحديث الذي حسّنه الألباني في صحيح الجامع: (تهادوا تحابوا).

نحو الهدف الأسمى:

وصل رُسُل الملكة إلى سليمان وهم يحملون هدية ملكتهم الثمينة إلى نبي الله سليمان عليه السلام ويترقَّبون ردة فعله،

فاستقبلهم سليمان، وقال لهم: «أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون»، لم يلتفت سليمان عليه السلام إلى الهدية وتفاصيلها، ولم يناقشهم في محتواها، ولكن الحُرْقَةَ على دين الله تعالى، والصدق في تبليغ دعوته، دفعته إلى الإنكار عليهم «أتمدونن بمال»، ولسان حاله يقول: إن هذه الدنيا بزخرفها ومفاتنها وأموالها لا تصدني عن مواصلة طريقي في تبليغ دعوة الله عز وجل، والقضاء على الشرك، ونشر التوحيد في الأرض.

إن الداعية إلى الله تبارك وتعالى قد يتعرض خلال مسيرته الدعوية إلى ألوان متنوعة من الترغيب والإغراءات بقصد ثنيه عن طريقه، وإفساد نيته وقصده، ودفعه إلى السقوط في وحل التنازلات، والواجب عليه أن يسأل الله تعالى الثبات على دينه، ويُكْسِب نفسه مناعةً إيمانيةً تقاوم كل أنواع الإغراءات، ويُذكِّر نفسه بأن ما عند الله سبحانه وتعالى خير وأبقى من متاع الدنيا الزائل.

اتَّخَذَ سليمان عليه السلام سلسلةً من القرارات السريعة التي من شأنها أن تردع قوم سبأ، وتُبصِّرهم بأخطائهم، وتعيدهم إلى جادة الصّواب، فَرَدَّ الهدية، ونَهَرَ حامليها، وحمّلهم إنذارًا نهائيا ليصل إلى ملكتهم، فما كان من الملكة الحكيمة إلا أن أدركتْ أن سليمان عليه السلام رجل دعوة، لا طالب مصلحة، وصاحب رسالة، لا جامع ثروة، وذو مبدأ لا تغريه الأموال والهدايا والعطايا، فقرّرت أن تجمع كبار قومها، وتذهب إلى سليمان عليه السلام، وتُسْلِمَ لله سبحانه وتعالى.

نجح سليمان عليه السلام في مهمته العظيمة، ودخلت ملكة سبأ وقومها في الإسلام دون إراقة قطرة دم واحدة، وذلك بتوفيق الله عز وجل وفضله أولًا، ثم بما أظهره سليمان عليه السلام من حكمة في القرار، وثبات عند المغريات، وإصرار من أجل بلوغ الهدف، وحزم في القيادة، وهذه هي صفات الدعاة المخلصين، والمصلحين المؤثرين، والقادة الناجحين.

قصة أصحاب السبت

سورة الأعراف من الآية: ((163 - 169))

التحايل على الشرع:

أصحاب السبت هم قوم مِن بني إسرائيل يسكنون على ساحل البحر، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بتحريم صيد السمك عليهم يوم السبت، والسماح لهم بالصيد في بقية الأيام، وكانت الأسماك لا تأتي إلا يوم السبت بسبب فسقهم: «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم»، فلم يلتزم الكثير منهم بالنهي عن الصيد في يوم السبت، وقرروا التحايل على الأمر الشرعي، فحفروا الحفر، ونَصَبوا الشِباك، فإذا جاء السبت وقعت الأسماك في تلك الحفر والشباك، ولكنهم يؤجلون أخذها إلى يوم الأحد.

لجأ أصحاب السبت إلى هذه الحيلة، كان القصد منها الالتفاف على الأمر الشرعي بالنهي عن الصيد في يوم السبت، والتعدِّي على المحرّمات الشرعية، ومحاولة جَنْيِ المكاسب الدنيوية عن طريق الحيلة والخداع والكذب.

ويَكْثُرُ في زماننا الذين يتَّخذون من الحيلة والخديعة والمكر منهجًا لمخالفة الأحكام الشرعية الواضحة والصريحة، فبعض الناس يُزَيِّف الحقائق، ويتلاعب بالمصطلحات، ليُحِلَّ لنفسه وقومه ما حرَّمَهُ الله تبارك وتعالى عليهم، فيُسَمّون المحرَّمات بغير اسمها، فيطلقون على الخمر اسم المشروبات الروحية،

ويصفون المعازف المحرَّمة بغذاء الروح، ويَسْتَحِلّون الربا والغش والاحتكار في التجارة تحت مُسَمّى المنافسة التجارية الحرة، وأصبح الكذب عندهم من مهارات الحياة!

إن التحايل على شرع الله تعالى من أجل تخفيف وطأة المحرَّمات، وتجميل المخالفات الشرعية بمساحيق المكر والخداع، واستبدال أسماء المنكرات المعروفة بمصطلحات لا تعكس حقيقتها، من الأمور العظيمة التي ارتكبتها الأمم من قبلنا مثل أصحاب السبت وغيرهم، واستحقوا عليها العذاب في الدنيا والآخرة، فالحذر الحذر من الاقتداء بفعلهم المشؤوم في استخدام المكر والخديعة للتحايل على شرع الله سبحانه وتعالى، والالتفاف على أوامره ونواهيه.

صمام أمان المجتمعات:

المعصية الكبرى التي ارتكبها أصحاب السبت بالتحايل على دين الله تبارك وتعالى، ومخالفة الأوامر الشرعية، واتخاذهم الخديعة منهجًا في حياتهم ومعاملاتهم، أثار الغيرة في نفوس طائفة منهم، هذه الطائفة لم تقبل بمخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى، ولم تنضم إلى المحتالين العصاة، بل رفضوا فعلهم، وأمروهم بطاعة الله سبحانه وتعالى، ونهوهم عن منكر التحايل على الشرع.

وهناك طائفة ثالثة سلبية، صالحةٌ في نفسها، ولكنها ليست مصلحةً لغيرها، لا ترتكب المعاصي، ولكنها ترى بأن الإنكار لن

يجدي نفعًا، هؤلاء قالوا للمصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: «لمَ تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا»، فعلى الرغم من صلاح هؤلاء القوم فإن وجودهم غير مؤثر، لأنهم آثروا الصمت والانطواء على أنفسهم، وتركوا أهل الباطل يستمرون في إفسادهم، وشتان بينهم وبين المصلحين أصحاب الأهداف السامية، والطموحات العالية التي دفعتهم لإنكار المنكر والأمر بالمعروف، فقالوا لهم: «معذرةً إلى ربكم ولعلهم يرجعون»، فبإنكارنا أقمنا الحجة على هؤلاء العصاة لنُعذر فيهم، «ولعلهم يتقون»، فيتركون معاصيهم، ويتوبون إلى ربهم، وتجد النصيحة لها مكانًا في قلوبهم.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صمام أمان المجتمعات، وطوق النجاة الذي يعصمها من أمواج فتن الشهوات والشبهات، فالله تبارك وتعالى جعل أول سبب من أسباب خيرية هذه الأمة وأفضليتها على غيرها من الأمم هو أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»، وجعل هذه الفريضة العظيمة شرطًا من شروط التمكين في الأرض: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر».

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أقمار تتلألأ في سماء المجتمعات، يبدد نورها ظلام المعاصي، وهم خط الدفاع الأول الذي يقف سدًا منيعًا في وجه أصحاب الأهواء، فيُفشل مخططاتهم، ويحبط مؤامراتهم.

سنة الله تعالى ماضية:

أعرض أصحاب السبت عن الناصحين، فلم يستمعوا إلى تحذيراتهم، ولم يتَّعظوا بنصائحهم، بل استمروا على معاصيهم، وزادوا من مكرهم، حتى جاءتهم العقوبة الربّانية، ليحصدوا حماقة عتوهم وفسادهم في الأرض ومعصيتهم لأوامر الله تعالى.

الله تبارك وتعالى أخذ الظالمين بعذاب شديد جزاء فسقهم ومعصيتهم، وجعلهم مثلًا وعبرةً لكل من يتحايل على أوامره، ويُصِرّ على ارتكاب المعاصي، من أجل متاع زائل في هذه الحياة الدنيا، فبيّن الله تعالى عقوبتهم في القرآن الكريم: «فلما عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين»، إنها عقوبة شديدة مُذِلَّة، مسخهم الله سبحانه وتعالى فانقلبوا بإذنه قردةً خاسئين، وكانت هذه العقوبة الدنيوية على أفعالهم المخزية، ولعذاب الآخرة أشد وأقوى وأخزى، وفي ذلك عبرة لكل مَن جعل من الحيلة وسيلةً يتجاوز فيها حدود الحلال والحرام في الشرع، وطريقًا يُسهل له ارتكاب المعاصي، والتمتع بالشهوات المحرَّمة.

وأما الطائفة المؤمنة التي حذرت العصاة المحتالين من خطورة أفعالهم، وأرشدتهم إلى طريق الصواب، نجّاهم الله سبحانه وتعالى من العذاب: «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء»، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، الذين كانوا يأخذون على يد المفسدين، وينكرون عليهم معاصيهم، ويرشدونهم إلى الصراطْ المستقيم، فالله تعالى يقول في كتابه

الكريم: «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

قرية أصحاب السبت نموذج يتكرر في كل زمان ومكان، نجد العصاة الذين يحاولون مخالفة الأوامر الشرعية بشتّى السبل والوسائل، ونجد قومًا مصلحين لا يُقِرّون لهم بالمنكرات، بل ينهونهم عنها، وينصحونهم نصيحة المحب المشفق، ونجد قومًا آخرين فيهم خير وصلاح، ولكنهم ارتضوا لأنفسهم أن يجلسوا على مقاعد المتفرجين دون أن يكون لهم دور يُذكر في إنكار المنكرات المنتشرة.

قصة طالوت وجالوت

سورة البقرة من الآية: ((246 - 252))

تمحيص الصفوف:

طلب الملأ من بني إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا يقودهم في مواجهة مَن ظلمهم، وقد غلب على طلبهم الحماسة المندفعة، والرغبة العارمة في قتال عدوهم، ولكن هذه المواجهة الكبرى تحتاج إلى صفوةٍ مُختارةٍ تتحمل أعباءها، فكان لا بد من التمحيص والاختبار، حتى يميز الله تعالى الخبيث من الطيب.

وجاء التمحيص على هيئة اختبارات في مراحل متعددة، نتيجتها النهائية استخلاص الثلة المؤمنة القادرة على القيام بأعباء الدعوة والجهاد، وبدأ الاختبار الأول: «فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلًا منهم»، فارق الصَفَّ من كان يتستر بالشعارات، وبقي الصادقون، أهل الشجاعة والإقدام، ثم تعرَّضت المجموعة التي اجتازت الاختبار الأول إلى اختبار آخر يقيس مدى الامتثال للأوامر الربّانية دون اعتراض أو نقاش، وبعث الله تعالى طالوت ملكًا عليهم، فرسب في الاختبار من اعترض واحتجَّ وجادل، واجتاز من امتثل وأطاع واستسلم لأمر الله تعالى، ثم يأمر القائد (طالوت) جنوده «إن الله مبتليكم بنهر فمَن شرب منه فليس منّي ومَن لم يطعمه فإنه منّي إلا من اغترف غرفة بيده»، «فشربوا منه إلا قليلًا منهم»، فتمايزت الصفوف بشكل أوضح، وأصبحت المجموعة في مأمنٍ من أصحاب النفوس الضعيفة الذين لا يتلقون أوامر الله عزَّ وجل بالقبول والاستسلام، ولا

يصمدون أمام شهواتهم، ولا يتحلّون بروح المسؤولية التي تحتم عليهم طاعة قادتهم.

تقابل الجيشان، وانقسمت مجموعة طالوت إلى فريقيْن؛ فريق جعل مقاييس القوى المادية هي المعيار الذي يحدد الفئة المنتصرة فقالوا: «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده»، وفريق تعلقت قلوبهم بالله سبحانه وتعالى، وأحسنوا الظنَّ بربهم فقالوا: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»، فواجهوا عدوهم ونصرهم الله تعالى.

التصفية والغربلة مطلوبة قبل الأعمال، فالكثير يُقبل في البداية متحمسًا أو طامعًا أو مُحرجًا أو مُجاملًا، ولكن التمحيص من شأنه أن يُبقي الصادقين الثابتين، وينفي الخبث عن المجموعة كما يُنقّى الذهب من الكير، وصدق الله تعالى القائل: «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

القِلَّةُ المُباركة:

قالت الفئة المؤمنة من بني إسرائيل التي كان يقودها طالوت في مواجهة جالوت وجنوده: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»، هذا الإيمان الراسخ، وصِدْقُ التوكل على الله تعالى، واليقين بنصره لعباده المؤمنين، ملأ قلوبهم طمأنينةً وثقةً بأن الله عز وجل سينصر عباده وإن كانوا أقلَّ من أعدائهم عددًا وعدةً.

القلة لا تعني الضعف، وليست من أسباب الهزيمة، بل هي النواة التي ينطلق منها مشروع النصر والنجاح والتمكين في

الأرض، والله تبارك وتعالى ضرب لنا الأمثال في القرآن الكريم للقلة المتميزة النوعية المباركة، فهذا نبي الله نوح لم يؤمن معه إلا قليل «وما آمن معه إلا قليل»، وهؤلاء القلة الذين استجابوا لنوح وآمنوا بالله وحده هم الذين نجّاهم الله تعالى مع نبيه عندما أغرق الكافرين، وعباد الله تعالى الذين يشكرون ربهم ويحمدونه على نعمه من القلّة: «وقليلٌ من عبادي الشكور»، والمؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح قلّة: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم»، والمصلحون الذين ينهون عن الفساد في الأرض قليل «فلولا كان القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلًا ممن أنجينا منهم»، ونبينا صلى الله عليه وسلم بدأ دعوته بقلّة مؤمنة صادقة تجتمع على الطاعة في دار الأرقم، وقام سوق الجهاد أول ما قام على قلّة مؤمنة في غزوة بدر، فحصلت على تكريم ربّاني بالغفران، وفي حُنيّن حسمت القلّة المباركة التي اجتمعت حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نتيجة المعركة، بعدما انفضَّ الجمعُ في بداية المعركة.

القلّة النَّوْعِية هي عنوان التضحية والإخلاص والبذل، ومفتاح التغيير والنصر والتمكين، فكم من عملٍ عظيمٍ ومشروع ناجح كان القائمون عليه لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وكم من دعوة صادقة نافعة كان أنصارها يُعرفون بقلتهم، فالعبرة بالصدق والعطاء والبذل والتضحية والإيمان بالفكرة، والكثرة الغثائية لا تصنع نصرًا، ولا تبني مجدًا، ولا ترهب عدوًا.

السلاح الحاسم:

الجيوش التي تخوض المعارك المصيرية الكبرى التي تُغَيِّرُ مجرى التاريخ، وتحدد مصير الأمم، تحرص على استخدام أفضل أنواع الأسلحة في معاركها، وأكثرها جودة، وأشدها فتكًا بالأعداء والخصوم، لتساعدها على حسم المعارك والحروب، والمؤمنون على مَرِّ العصور يمتلكون سلاحًا حاسمًا لا يمتلكه أعداؤهم، هذا السلاح الذي يقتصُّ به المظلوم من ظالمه، ويلجأ إليه المهموم في عِزِّ كربته، ويُشْهِرُهُ المجاهد في ساحة معركته، هو سلاح الدعاء، سهام الليل التي يوجهها المؤمن في نحور أعدائه.

الفئة المؤمنة التي تواجه جالوت وجنوده لجأتْ إلى ربها، ورفعت أَكُفّ الضراعة داعية الله عز وجل «ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين»، يسألونه تعالى الصبر في هذا الموقف العصيب، صبرًا يجعل النفوس تبغي ما عند ربها تعالى محتسبة الأجر، فلا يقلقها عدد الأعداء، ولا يخيفها عتادهم، وثباتًا في النِّزال حتى نهاية المعركة، ونصرًا مُبينًا تُنسي حلاوته مرارة سنين المعاناة والألم والتشرد، فاستجاب الله تبارك وتعالى دعاء الصَّفوة المؤمنة: «فهزموهم بإذن الله»، وانتهت المعركة بقتل جالوت وهزيمة جنوده.

النبي صلى الله عليه وسلم بيَّنَ بعض مواطن إجابة الدعاء: (الدعاء عند النداء، وعند البأس)، وقد فعل هذا صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الكبرى، عندما استقبل القِبْلَةَ، ودعا ربه تعالى حتى سقط رداؤه عن منكبيه وقال: (اللهم أنجز لي ما وعدتني)، فكانت غزوة بدر فاتحة الانتصارات، ومقدمة الفتوحات.

الدعاء سلاح المؤمن، لا يتخلّى عنه في أي شأن من شؤون حياته، وخاصة عند الكرب واشتداد البأس ومواجهة الأعداء، فالله تبارك وتعالى قال: «ادعوني أستجب لكم»، فالمؤمن يحرص على هذا السلاح الذي يفتقده الأعداء، ويستشعر أهميته، ويحسن ظنه بربه تبارك وتعالى، ويتأمَّل الخير والفرج والنصر والتمكين.

النصر من عند الله:

النتيجة النهائية لمواجهة طالوت والطائفة المؤمنة معه لجالوت وجنوده هي ما أخبرنا الله تبارك وتعالى به في القرآن الكريم: «فهزموهم بإذن الله»، فكان النصر حليفًا للطائفة المؤمنة على جالوت وجيشه الكبير، ولم يكن هذا بسبب قوة الطائفة المؤمنة، أو كثرة عددها، أو شجاعة جندها، أو حنكة قائدها، أو ضعف خصومها، بل كانت هزيمة جالوت وجنوده «بإذن الله».

الله تبارك وتعالى يريد منّا عدم التعلق بالأسباب المادية، فالنصر بيد الله سبحانه وتعالى وحده، فبذلُ السبب مطلوب، والإعداد الجيد في مختلف الجوانب من الضرورات التي أمرنا الله عَزَّ وجل بها «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، ولكن تعلق القلوب بهذه الأسباب مُحَرَّم، فالمؤمن يتوكل على الله سبحانه وتعالى، ويعلم علم اليقين بأن النصر بيد الله عز وجل، فيبذل الأسباب الدينية مِن تَوَكُّلٍ خالصٍ على الله تعالى، ويقين بوعده الحق لعباده، وإلحاحٍ في الدعاء والتضرع وطلب النصر والتأييد من الله تعالى، ولا يهمل التركيز على الأسباب المادية من إعداد وتجهيز وتخطيط سليم، ليكتب الله عزَّ وجل له النصر المؤزر.

يسلط القرآن الكريم الضوء في أكثر من آية على هذه الحقيقة، فالله تبارك وتعالى يبين أن النصر من عنده: «وما النصر إلا من عند الله»، وأن الانتصارات هي نتاج توفيقه لعباده «إذا جاء نصر الله والفتح»، «وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب»، ويخبرنا الله عز وجل أنه إذا كتب لعباده النصر فلن تستطيع قوى الأرض وقف هذا النصر، أو التأثير في مجريات المعارك «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»، والله سبحانه يوضح أن نصره يتنزل على من نصروا دينه، وأقاموا شريعته، وامتثلوا لأوامره سبحانه وتعالى: «إن تنصروا الله ينصركم».

الإيمان بأن النصر من عند الله تبارك وتعالى، ينقل النفوس من سراب التعلق بالأسباب المادية إلى حقيقة الثقة بوعد الله الصادق لعباده بالنصر والتمكين، ومن ضيق الحسابات الدنيوية إلى سعة اليقين بقدرة الله سبحانه وتعالى على مداولة الأيام بين الناس، وتغيير موازين القوى لتكون الغلبة لأهل الإيمان.

قصة صالح عليه السلام
سورة الأعرف من الآية: ((73 - 79))

قصة صالح عليه السلام

المعاصي خراب للعمران:

ثمود هم قوم نبي الله صالح عليه السلام، الذين يسكنون مدائن الحِجر في جزيرة العرب، أنعم الله تبارك وتعالى عليهم بنعم كثيرة، فالزروع والثمار والنخيل تحيط بهم من كل جانب، والعيون تفيض بماءٍ عَذْبٍ يشربون منه ويسقون زروعهم، ومنحهم الله تعالى حضارةً متقدمةً، ووهبهم مهارة البناء والتقدم في العمران، وتميزوا في ذلك العصر ببناء البيوت والقصور الآمنة الفارهة وسط الجبال، واستخدموا في ذلك الأحجار الموجودة في الوادي الذي يقيمون فيه.

الله تعالى بعث لهم رجلًا منهم يتصف بالصَّلاح والأخلاق الكريمة والمكانة العالية بين قومه، فأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وذكَّرهم بنعم الله سبحانه وتعالى الكثيرة عليهم «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد»، وخصَّ من النعم مهارة البناء والعمران التي تميزوا بها: «وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتًا»، ثم طلب منهم ذِكْرَ آلاء الله تعالى عليهم، وحذَّرهم من الآفة الخطيرة التي تُخَرِّبُ الديار العامرة، وتزيل النعم الظاهرة، فقال: «ولا تعثوا في الأرض مفسدين»، ولكنهم لم يستجيبوا له، واستمروا على فسادهم وإفسادهم ومعاصيهم، وعقروا النّاقة التي أمرهم نبيهم بعدم المساس بها، فكانت النتيجة: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في

دارهـم جاثميـن»، أبادهـم الله تعالـى، وقطـع دابرهـم، ودمَّـر بيوتهـم، وتركهـا آيـةً ليتعـظ بهـا ويعتبـر مَـن يأتـي بعدهـم.

الحضارة المتقدمـة، والتطور العمرانـي، والمدنيـة الحديثة التي طغتْ بمظاهرهـا الماديـة علـى الحيـاة اليـوم، فسـحرت أعيـن بعـض النـاس، وأنسـتهم أصـل النعـم التـي يتمتعـون بهـا، فارتكبـوا المعاصـي، وأَلِفـوا المنكـرات، وسـعوا فـي الأرض يفسـدون فيهـا ويهلكـون الحـرث والنّسـل، هؤلاء سينالهم غضب الله تعالـى وعقابه، كما نـال الأمـم السـابقة الذين أغرتهم قوتهم وحضارتهم، فما أغنت عنهم من الله تعالى شيئًا، فكل هـذه المظاهـر الماديـة مـن قـوة وتقـدم وحضـارة وتطـور، لـن تحصِّـن المفسـد مـن عقـاب الله تعالـى فـي الدنيـا والآخـرة، فـإذا جـاء أمـر الله عـزَّ وجـل تكـون أَثَـرًا بعـد عيـن، والعاقـل مـن اتعـظ بغيـره.

محاربة المصلحين وبغض الناصحين:

صالـح عليـه السـلام عَلَمٌ فـي أخلاقـه وحكمتـه بيـن قومـه، ولذلـك قـال لـه قومـه عندمـا دعاهـم إلـى التوحيـد وتـرك مـا هـم عليـه مـن الكفـر: «يـا صالـح قـد كنـت فينـا مرجـوًا قبـل هـذا»، وهـذا القـول منهـم يـدل علـى المكانـة الكبيـرة التـي كان يحظـى بهـا بيـن قومـه، وهـذه المكانـة لـم تمنـع رمـوز الفسـاد ورؤوس الكفـر مـن رفـض دعـوة صالـح لهـم، حتـى وصـل بهـم العتـو والعنـاد إلـى تكذيبـه والاسـتهزاء بـه، ومخالفـة أوامـره، والتآمـر مـن أجـل التخلـص منـه وقتلـه، فالمَـلأُ يبغضـون مـن يأمرهـم بالمعروف، وينهاهـم عن المنكر، لأن مصالحهم الدنيويـة وسـطوتهم تقـوم علـى هـذا المنكـر الـذي يسـتقوون بـه علـى المسـتضعفين مـن قومهـم.

نبـي الله صالـح بلَّـغَ الرسـالة، وأدّى الأمانـة علـى أكمـل وجـه، ونصـح لقومـه وأمتـه، لا يريـد منهـم جـزاءً ولا شـكورا، ولكنـه يحتسب الأجـر عنـد ربـه تعالـى، ويرجـو لقومـه النجـاة مـن عقـاب الله تعالـى، ولكنهـم جعلـوا أصابعهـم فـي آذانهـم، وأداروا ظهورهـم لـه، فـردّوا نصيحتـه، وكذّبـوا دعوتـه، وكفـروا بمعجزتـه، فأخذهـم الله تبـارك وتعالـى بعقابـه، ومرَّ عليهم صالـح عليـه السـلام بعد هلاكهم وقـال: «يـا قـوم لقـد أبلغتكـم رسـالة ربـي ونصحـت لكـم ولكـن لا تحبـون الناصحيـن»، بغضهـم للناصحيـن المصلحيـن الذيـن يريـدون لهـم الخيـر أوصلهـم إلـى هـذه النهايـة البائسـة، ولعـذاب الآخـرة أشـد وأبقـى.

أهـل الفسـاد لا يحبـون مـن يأمرهـم بالمعـروف، وينهاهـم عـن المنكـر، فيعـدّون الناصـح ألـد أعدائهـم، قـد يقبلـون بـك صالحًـا فـي نفسـك، غيـر مؤثـر علىفـي غيـرك، فـلا تمنعهـم مـن فعـل المنكـرات، ولا تتصـدّى لتعديهـم علـى شـريعة رب العالميـن، وهـذا شـهدناه فـي رد قـوم صالـح علـى دعوتـه لهـم بعبـادة الله تعالـى وحـده لا شـريك لـه، وشـهدناه كذلـك فـي سـيرة نبينـا صلـى الله عليـه وسـلم عندمـا كان قومـه يصفونـه بالصـادق الأميـن، ثـم اتهمـوه بالكـذب والسـحر والجنـون بعـد البعثـة، لأنـه أمرهـم بتوحيـد الله تعالـى، ونهاهـم عـن المنكـر الـذي كانـوا يفعلونـه ولا يتناهـون عنـه.

بغـض أهـل الفسـاد للمصلحيـن، واسـتهزاؤهم بالناصحيـن، موجـود فـي كل زمـان، لأن الناصـح المصلـح يَدُكُّ معاقـل المفسـدين بكلماتـه الطيبـة، ويهـدد مصالحهـم وشـهواتهم بإنكـاره للمنكـر ونهيـه عنـه.

شركاء المعصية:

كذب أهل ثمود نبيهم صالح عليه السلام، ولم يقبلوا بنصيحته، وتآمروا على قتله، وخالفوا أوامر الله سبحانه وتعالى لهم بعدم المساس بالناقة وإلحاق الضرر بها، فاتفقوا على مخطط المعصية وقتل الناقة: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون»، واختاروا أشقاهم للقيام بهذه الجريمة الشنيعة، والمعصية القبيحة، فعَقَرَ الناقة مخالفًا أمر الله تبارك وتعالى، ومتجاهلًا تحذير نبيه صالح عليه السلام، فأمهلهم نبيهم ثلاثة أيام حتى جاء الوعد الحق.

انتهت الأيام الثلاثة، وحلَّ العقاب الربّاني على المفسدين الذين خالفوا أوامر الله تعالى، وكذّبوا نبيهم، ولكن هل اقتصر العقاب على أشقى القوم الذي تصدى لقتل الناقة «فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر»، أم شمل العقاب المخططين التسعة الذين حرَّضوا على ذبح الناقة «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون»؟ شمل العقاب الربّاني المُنفذ والمحرِّضين والمُخططين ومن رَضِيَ بهذه الجريمة من قوم ثمود: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين»، فالمعصية مشتَرَكة بين مَن نفّذ وخطط وحرّض وقَبل بها وإن لم يشارك في التنفيذ والتخطيط، ولنتأمّل بلاغة الوصف القرآني للجريمة: «فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم»، فجاء الوصف بصيغة الجمع ليبين أن الجريمة مشتَرَكة بين كل هذه الأطراف.

يتحمّل وزر المعاصي والذنوب والجرائم كل من شارك فيها من منفذين ومخططين ومحرضين، ويشمل العقاب والوزر مَن يزيّن هذه الجرائم والمعاصي ويبررها ويفوض مرتكبيها، وكذلك مَن رَضِيَ بها وسكت عن إنكارها وإدانة فاعليها والبراءة منهم مع قدرته على ذلك، فليحذر الإنسان أن يكون مشاركًا أو معاونًا أو راضيًا عن ارتكاب المعاصي والذنوب والجرائم، لأن شؤم المعصية والعقاب عليها يشمل هؤلاء جميعًا.

قصة يونس عليه السلام

سورة الصافات من الآية: ((139 - 148))

قصة يونس عليه السلام

توبة قرية:

الله تبارك وتعالى أرسل عبده يونس عليه السلام إلى أهل نينوى في الموصل، ودعاهم إلى توحيد الله عز وجل وعبادته، فرفضوا دعوته، ولم يقبلوا بنصيحته، وأعمى بصيرتهم الكفر والعناد، فلما طال عليه ذلك، توعَّدهم عليه السلام بعقاب من الله سبحانه وتعالى يحلُّ بهم، وخرج من بين ظهرانيهم.

شعر القوم بعِظَم الذنب الذي ارتكبوه، وشدة العقاب الذي سيحلُّ بهم، وسوء المنقلب الذي ينتظرهم، فهذا نبيهم الناصح المنذر قد فارقهم، وبوادر العذاب الربّاني بدأت تلوح في الأفق، فاستفاق القوم من غفلتهم، وثابوا إلى رشدهم، وأنابوا إلى ربهم نادمين على ما فات، تائبين من ذنوبهم، مستغفرين ربهم تبارك وتعالى، فقبل غافر الذنب وقابل التوب توبتهم، وغفر ذنوبهم، وكشف عنهم العذاب، ورفع عنهم غضبه ومقته، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنزل قرآنًا يتلى إلى قيام الساعة يحكي قصة هذه التوبة الجماعية ليتعظ أولو الألباب، ويعودوا إلى ربهم الغفور التواب: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين».

أبواب التوبة مشرعة، والله تبارك وتعالى ينادي عباده: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله»،

فرحمة الله تعالى واسعة، والذنوب والمعاصي مهما بلغ حجمها، وكثر عددها، فالرحمن الرحيم يغفرها إذا تاب عبده إليه وأناب، وصدق في توبته، وندم على ما كان منه من تقصير وخطأ.

قوم يزيدون عن مئة ألف، عاندوا رسولهم، وردّوا دعوته، وكان العذاب قاب قوسين أو أدنى منهم، غفر الله تعالى لهم، ورفع عنهم العذاب، ومتّعهم حتى حين، وأبدل سيئاتهم حسنات، لأنهم تابوا وأنابوا واستغفروا ربهم، فهل يجد بعد ذلك اليأس والقنوط مكاناً لهما في نفوس عباد الله تعالى المقصرين المذنبين؟

عبادة الرخاء:

فارق نبي الله يونس عليه السلام قومه مغاضبًا، واتجه ناحية البحر، وركب في الفُلك، وشاء الله عز وجل أن تثقل السفينة براكبيها، ويقرر أهل السفينة أن يقترعوا ليلقوا في البحر من تصيبه القرعة، وقَدَّرَ عز وجل أن يكون يونس عليه السلام هو من تصيبه القرعة، لحكمة يهيئها الله تعالى له، فيلتقمه الحوت، ويحفظه سبحانه وتعالى في بطن الحوت، ثم يُنَجّيه من هذه الظلمات، ويقول سبحانه وتعالى: «فلولا أنه كان المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون»، عبادة يونس في زمن الرخاء والسراء، وتسبيحه لرب الأرض والسماء، جعلها سبحانه سببًا لنجاته من هذا الكرب العظيم الذي وقع عليه.

كان يونس من المسبحين العابدين الحامدين الطائعين لله تعالى، والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين، فوجد يونس أَثَرَ

عبادته، وثمرة طاعته، عندما اشتد عليه الكرب، وأطبقت عليه الظلمات، فجعل الله تبارك وتعالى هذه العبادة التي كانت من عبده في زمن الرخاء نورًا يبدد ظلمات الواقع الذي يعيشه.

يرشد رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى كنز العبادة في وقت الرخاء، وأثرها العظيم فيقول له ناصحًا وموجهًا: (احفظ الله يحفظك)، احفظ الله في وقت قدرتك وقوتك، يحفظك الله في شدتك وكربك، ويضرب صلى الله عليه وسلم مثلًا بالثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة الغار، فتقرَّبوا إلى الله عز وجل بأعمالهم الصالحة الخالصة التي عملوها في وقت الرخاء، فكشف الله تعالى كربهم، وانزاحت الصخرة عنهم.

عبادة الرخاء، والطاعة في زمن السراء، هي السبيل إلى تبديد ظلمات العسر والقلق التي تفسد طمأنينة النفوس، وإزاحة صخرة الكرب والهموم والغموم الجاثمة فوق صدور الكثير من الناس، فتمنعهم الشعور بالحياة الهانئة، وتسلبهم راحة البال، فزمن السرّاء هو موسم الحرث، وزمن الضرّاء ووقوع الكرب هو موسم حصاد ما زرعه الإنسان من طاعات وقربات في سرّائه.

يا صاحب الهمِّ.. أبشر:

الحوت التَقَمَ يونس عليه السلام، واستقرَّ في بطنه، ووجد نفسه في ظلماتٍ ثلاث، ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، ولكن الحكاية لم تنتهِ، ولم يقنط يونس عليه السلام، بل

اتجـه إلـى ربـه سـبحانه وتعالـى، ودعـاه دعـاء المضطـر المهمـوم الـذي يرجـو رحمتـه: «وذا النـون إذ ذهـب مغاضبًا فظـن أن لـن نقـدر عليـه فنـادى فـي الظلمـات أن لا إلـه إلا أنـت سـبحانك إنـي كنـت مـن الظالميـن»، دعـاء اختـرق الظلمـات التـي تحاصـر يونـس عليـه السـلام، ففُتحـتْ لـه أبـواب السـماء، واسـتجاب الله تبـارك وتعالـى لعبـده «فنجينـاه مـن الغـمِّ»، وانقشـعت الظلمـات، وبـزغ نـور الفـرج، وخـرج يونـس مـن بطـن الحـوت بفضـل ربـه تعالـى.

هـذا الدعـاء الـذي تفتّحـت لـه أبـواب السـماوات، واسـتجاب الله سـبحانه وتعالـى لـه، دعـاء عظيـم حَرِيٌّ بكل مؤمـن أن يحـرص عليـه، ويفتتـح بـه مسـألته ودعـاءه، فرسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم قـال فـي الحديـث الـذي رواه الإمـام أحمـد وصححـه الألبانـي: (دعـوة ذي النـون إذ دعـا وهـو فـي بطـن الحـوت لا إلـه إلا أنـت سـبحانك إنـي كنـت مـن الظالميـن، إنـه لـم يدعُ بهـا مسـلم فـي شـيءٍ قـط إلا اسـتجاب الله لـه بهـا).

هـذا الدعـاء يبـدأ بالتوحيـد، ونبـذ الشـرك، وإفـراد الله سـبحانه وتعالـى بالعبـادة والاسـتعانة والطاعـة، ثم تسـبيحه عـزَّ وجل وتنزيهـه عـن صفـات النقـص، وإثبـات الكمـال لـه تعالـى، وينتهـي باعتـراف العبـد بظلمـه لنفسـه وتقصيـره وأخطائـه، ومـن فضـل الله تبـارك وتعالـى العظيـم علـى عبـاده المؤمنيـن أن الاسـتجابة لـم تكـن خاصـة بيونـس عليـه السـلام، بـل قـال تعالـى: «فاسـتجبنا لـه ونجينـاه مـن الغم وكذلـك ننجـي المؤمنيـن»، وهـذا وعـد إلهـي، وبشـارة ربّانيـة لـكل مؤمـن حاصـره الهـمُّ، وضـاق صـدره حزنًـا، وأثقلت كاهلـه الشـدائد، أن الله تبـارك وتعالـى سـينجيه، ويكشـف كربـه، ويفـرِّج هَمَّـه، كمـا فعـل بيونـس عليـه السـلام.



قصة أصحاب القرية

سورة يس من الآية: ((13 - 32))

قصة أصحاب القرية

نهج المصلحين:

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لينذروا أقوامهم، وينشروا رسالة التوحيد، وليقيم الحجة على الناس، ومن بين الناس الذين جاءتهم رسلهم بالبينات، أصحاب القرية الذين وَرَدَ ذِكْرهم في سورة يس، فقد أرسل الله تبارك وتعالى إليهم رسولَيْن، فكذبوهما ولم يستجيبوا لدعوتهما، فعززّهما برسول ثالث يعينهما على أداء هذه المهمة العظيمة التي كُلِّفوا بها، وهي مهمة الدعوة إلى الله تعالى.

عَرَف الرسل مهمتهم، وآمنوا بها إيمانًا راسخًا لا تزعزعه تهديدات المجرمين، ولا تؤثر فيه حملات التكذيب والافتراء من العصاة الحاقدين، فالإيمان بالفكرة وقود العطاء والتضحية. بلَّغ الرسل الرسالة، فبدأت المواجهة بحملة تكذيب وافتراء من أصحاب القرية، ثم انتقلوا بعد التكذيب إلى الجدال العقيم. والتشكيك بما جاء به المرسلون وبرسالتهم: «ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء»، وهذا التشكيك والتكذيب للمصلحين هو ديدن أصحاب الأهواء، وبضاعة المفلسين في كل زمان ومكان.

كان الرسل الثلاثة يدًا واحدةً في تبليغ دعوة التوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يساند أحدهم الآخر، يشدُّ عضده، ويُقوِّي حُجَّتَه، فقدَّموا مشروعًا دعويًا جماعيًا متكامل الأركان، والدعوات تحتاج إلى تضافر الجهود من الجميع، والعمل بروح

الفريق الواحد، وتكامل الأدوار بين أعضاء الفريق، لتحقيق النتائج المرجوة من دعوتهم، وصدٌّ حملات التشكيك والتكذيب المنظمة التي تُشن عليهم.

الإخلاص تاج الأعمال:

العمل المتجرد الخالص الذي يبتغي المسلم به وجه الله سبحانه وتعالى، هو العمل الذي يبقى أثره، ويَعُمُّ نفعه، ويرفع الله تعالى به ذِكْرَ صاحبه، لأنه بذله لله تعالى ولا ينتظر عليه جزاءً ولا شكورًا من البشر، ومَن أراد الاطّلاع على نموذج من نماذج الإخلاص في العمل لله تعالى، فلينظر إلى إجابة الرسل على أصحاب القرية الذين كذبوهم وشككوا بمقاصدهم، فقالوا بيقين وثقة: «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»، فالله تبارك وتعالى يعلم صِدْقَ دعوتنا، ويشهد على نُبْلِ أهدافنا وسلامة مقاصدنا، وهذه هي الغاية من دعوتنا.

هذا الإخلاص في النِيَّة والمقصد والهدف، هو السِّرُ الذي يدفع الإنسان إلى إتقان عمله على أكمل وجه، وصوْنِ الأمانة التي تحمَّلها، وعدم التأثر بالنتائج، فالداعية المصلح العامل يبذل وسعه، ويؤدي دوره، ويصدق في نصيحته، ويتقن عمله: «وما علينا إلا البلاغ المبين»، فنحن نتعبَّد الله سبحانه وتعالى بأداء العمل بإخلاص أيًا كانت نتيجته في نفوس الناس.

ومن أسباب نجاح المصلحين وأصحاب الرسالات، الاستغناء عمّا في أيدي الناس من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها، فالناصح المصلح لا يبتغي أجرًا ماديًا على دعوته ونصحه، ولا يرتجي

مكافأة دنيوية على تقديمه الخير للناس، ولا ينتظر كلمة شكر على جهوده، لأن غايته العظمى الفوز برضا الله سبحانه وتعالى عنه وعن أعماله، وهدفه الأسمى جنة عرضها السماوات والأرض أُعِدَّتْ للمتقين، فمنافسة الناس في أمور دنياهم تصنع حاجزًا بينهم وبين المنافس، فيُحجِم الكثير عن الاستجابة إلى دعوته، والقبول بنصيحته، واجتناب ذلك أدعى لنجاح الداعية الناصح في كسب قلوب المدعوين: «اتبعوا مَن لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون»، وهذه الصفة تميَّز بها رسل الله عزَّ وجل وأنبياؤه.

صناعة الرجال:

كذّب أصحاب القرية المرسلين، ولم يزدهم النصح والتذكير إلا عتوًا وعنادًا، وفي هذا الوقت سمع بدعوة الرسل رجل يسكن أقصى المدينة فتأثَّر بها، وخالط الإيمان بشاشة قلبه، فلم يكتفِ بالجلوس في بيته والتفرغ للعبادة، بل وصف القرآن الكريم حاله: «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين»، رجل لم يُذكر اسمه، ولكن ذُكِرَ فعله وعمله، في إشارة إلى أن الرجولة الحقيقية تنبثق من أفعال أصحابها، لا تلك التي تعتمد على الأسماء والألقاب، جاء مسرعا «يسعى» لينضم إلى كوكبة الدعاة المصلحين، ويؤدي أمانة النصح والإرشاد، وينصر أصحاب الرسالة الذين وقع عليهم الظلم والافتراء.

هذه الصفات الرجولية من انقياد للحق، ونصرة لأهله، ونصح للأقربين، خلّد الله تعالى بها ذِكْرَهُ في القرآن الكريم، فأصبح

قدوةً لمَن يأتي بعده من الرجال، وهذه الصفات لا تجتمع إلا في نفس ذاقت حلاوة الإيمان، وقلب اطمأن بالتعلق بالله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فعَلِم أن النفع والضر بيد الله سبحانه وتعالى وحده، فانطلق محلقًا ينشر الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينصح قومه، وينصر الرسل، حتى قتله قومه، فأكرمه الله تعالى بمغفرته ورضوانه، والفوز بجنانه، فتواصلت معه الرغبة في الخير، والحرص على مصلحة قومه حتى عند دخوله الجنة رغم إساءتهم له فقال: «يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي».

اليوم نحن بحاجة إلى معرفة هذه الصفات وتدارسها، وغرسها في نفوس الأجيال الصاعدة، ليكونوا رجالًا مؤمنين حريصين على خدمة دينهم، ومصلحة مجتمعهم، ونفع أوطانهم وأهلهم، فالإيمان الراسخ بالله سبحانه وتعالى يصنع الرجال الحقيقيين، ويقذف في قلوبهم الرغبة في إيصال الخير لأهلهم ومجتمعهم وأوطانهم، ويدفعهم إلى نصرة كل صاحب حق، والتصدي لمن ظلمه وافترى عليه.

يا حسرة على العباد:

اتخذ أصحاب القرية من التكذيب والاستهزاء بضاعةً، والعناد والاستكبار منهجًا، فبارت تجارتهم، وخاب منهجهم، فلم يستجيبوا إلى الحق الذي جاء به المرسلون، ولم يستفيدوا من الرجل الصالح المشفق الذي جاء من أقصى المدينة ناصحًا ومنذرًا،

فواجهوا الرسل بالتكذيب والافتراء والاستهزاء، وحاولوا إسكات صوت النصيحة بقتل صاحبها، والتخلص منه، كعادة المستكبرين المجرمين الذين يحاربون كل ناصح، ويمنعون صوته كي لا يوقظهم من سبات غفلتهم.

أهدر المكذبون من أصحاب القرية فرصة التوبة النصوح، واستهزؤوا برسلهم، وافتروا عليهم، وكتموا أصوات النصيحة، ووأدوا مبادرات الإصلاح، وحاربوا أولياء الله تعالى، فكان العقاب الربّاني العادل بانتظارهم: «إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون»، صيحة واحدة فقط أسدلت الستار على فصول من الاستكبار والعتو والتكذيب والاستهزاء، فأصبحوا (خامدين)، كما تخمد النار بعد اشتعالها وتوهجها، وتصبح أثرًا بعد عين، وهذه قدرة الله عز وجل، وسنته في إهلاك من يكذب رسله ويُحارِب أولياءه، «يا حسرة على العباد»، الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والهلاك.

إيذاء أولياء الله الصالحين، وتشويه صورتهم، ووصفهم بالكذب والافتراء، وإعلان الحرب عليهم لإسقاطهم، ومحاولة فضِّ الناس من حولهم، تستوجب العقوبة الربّانية لأصحاب هذا الفعل الشنيع، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه عن ربه تعالى في الحديث القدسي كما جاء في البخاري: (من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب)، يا لخسارة من يحارب الله العزيز الحكيم عبر إيذاء أوليائه ومعاداتهم، فالحذر الحذر أن يكون خصمك وليًا من أولياء الله تعالى الصالحين، فيحاربك الله عز وجل، ويكون مصيرك الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

قصة لوط عليه السلام

سورة الأعراف من الآية: ((80 - 84))

سورة الحجر من الآية: ((61 - 77))

قصة لوط عليه السلام

الفاحشة المخزية:

أرسل الله تبارك وتعالى رسله إلى الأمم لإصلاح ما انتشر فيها من فساد، ومن هؤلاء الرسل لوط عليه السلام الذي أرسله الله تعالى إلى قومه، هؤلاء القوم أضافوا إلى شركهم بالله تعالى حزمةً من المعاصي والمنكرات، فكانوا يمارسون الفاحشة، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، وسَجَّل التاريخ في صفحات الخزي والعار ابتداعهم فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين، فسنّوا سنّة سيئة، عمل بها من جاء بعدهم من أصحاب الشذوذ، «ولوطًا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال»، انتكست الفطرة السليمة، واتبعوا أهواءهم، ووقعوا أسرى في شباك شهواتهم البهيمية، وتركوا ما أحلَّ الله تعالى لهم من النساء، وفشت الفاحشة بينهم وعُرفوا بها.

ولم يكتفِ قوم لوط بذلك، بل أصبحوا يجاهرون بشذوذهم، ويشجعون بعضهم بعضًا على فعل الفاحشة المخزية، وينظر بعضهم إلى بعض وهم يفعلون هذه الفاحشة النكراء بقصد تطبيعها في المجتمع، وجعل الناس تعتاد على هذا الشذوذ التي ترفضه الفطر السوية، والقلوب السليمة، بل تمادوا أكثر من ذلك، فنبذوا كل من يرفض فعلهم، ويأبى إقرارهم على جريمتهم الشنعاء.

نرى هذه الفاحشة القبيحة، في هذا الزمان منتشرة في كثير من البلاد، بل أصبحت بعض الدول تسعى لتشريعها وتقنينها من خلال سنِّ القوانين، وإدراجها ضمن أنشطة حرية الرأي والفكر، وتمادوا أكثر من ذلك متبعين ما فعله أشباههم من قوم لوط، فأسّسوا النوادي المخصصة لخدمة الشواذ والعياذ بالله، وأنتجوا المواد المرئية من أفلام وصور وإعلانات وشعارات تُشجع على هذه الرذيلة، وكل هذه الخطوات يتّبعها أهل الرذائل من أجل الترويج لهذا المنكر العظيم، وترويجه في المجتمعات، وجعل الشذوذ الذي تُنكره الفطر السليمة سلوكًا اعتياديًا، وحقًا لا يُنكَر، ولا يُعاقَب صاحبه.

استراتيجية الفساد:

أدمن قوم لوط مواقعة الفاحشة، وتفوّقوا على الحيوانات في سباق إشباع غرائزهم البهيمية، دون أن يردعهم ضمير حي، أو يَصدَّهم عن فعلهم القبيح عقل راجح، أو تعيدهم إلى جادة الصواب فطرة سليمة، فأعرضوا عن دعوة نبي الله لوط عليه السلام لهم بالامتناع عن فعل الفواحش، وقابلت نصيحته آذانا صمًا، وأعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وأعدّوا العدة لمواجهة دعوة الإصلاح التي جاء بها، فأطلقوا حملة تهديد ووعيد تستهدف تخويف لوط عليه السلام من معارضة أفعالهم، ومنعه من إكمال مسيرته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «لئن لم تنتهِ يا لوط لتكونن من المخرجين»، وهذا تهديد صريح بالطرد والإخراج من الديار.

استمر قوم لوط في تطبيق استراتيجيتهم الخبيثة، وأفصحوا عن أهدافها القبيحة، فكان الهدف الأول لهم إسكات صوت الإنكار الذي رفعه لوط في وجه منكراتهم التي يقترفونها، ولكن هيهات أن يُسْكِتَ نعيقُ المفسدين صوتَ الحق والعفَّة. استمرَّ لوط في دعوته، وواصل تحذيره لهم، ولمّا أدركوا فشل هذه الخطوة، انتقلوا إلى الخطوة الثانية، وهي الحيلولة بين لوط وبين الناس، لكي لا يتأثروا بدعوته، فيفسد عليهم شهواتهم، فقالوا له: «أولم ننهك عن العالمين»، وهذا فعل المفسدين في كل زمان، وهو منع تواصل المصلحين مع الناس، وتجريدهم من وسائل التأثير والتواصل المتنوعة من منابر وأقلام ووسائل مرئية أو مسموعة أو مقروءة التي يفضحون من خلالها الفساد وأهله، وينهونهم عن شهواتهم المحرّمة، ويوضحون للناس خطورة أفعالهم.

فشل محاولات قوم لوط في المحافظة على إشباع شهواتهم دون إنكار ألجأتهم إلى الخطوة الأخيرة، وهي قلب الحقائق، وإخراج لوط عليه السلام من قريتهم بتهمة الفضيلة! فأجمعوا أمرهم، واتخذوا قرارهم وقالوا: «أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون»، فأصبحت تهمة لوط عليه السلام الفضيلة التي أزعجت رذائلهم، والطهارة التي تحاول محو نجاسة فواحشهم، وهذه تهمة يُحاكم بها المصلحون في كل وقت، ولكن مع تغيير في المصطلحات، فتارةً يُتهم المصلحون بالرجعية والانغلاق لوقوفهم سدًا منيعًا لحماية المجتمع من أصحاب الأهواء، وتارةً أخرى يُتهمون بقمع الآراء التي تختلف معهم لرفضهم تقنين الشذوذ، وتطبيع المخالفة للفطرة السليمة، وهذه استراتيجية المفسدين

فـي كل زمـن لإشـباع شـهواتهم المحرّمـة، ومنـع المصلحيـن مـن المحافظـة علـى تماسـك المجتمعـات، والأخـذ علـى يـد تيـارات الإفسـاد التـي تريـد تدميرهـا.

سَكْرَةُ الفاحشة:

واصـل لـوط عليـه السـلام دعـوة قومـه إلـى الفضيلـة، وحذّرهـم مـن ارتـكاب الفواحـش والمنكـرات المخالفـة للفطـرة، والقـوم يعاندون ويتمنعـون ويسـتهزؤون، حتـى حانـت لحظـة الاختبـار النهائـي العصيـب، هـذا الاختبـار الـذي يكشـف المعـادن، إنهـا لحظـة الشـدة التـي تسـبق الفـرج، وحلكـة الليـل التـي تنجلـي ببـزوغ الفجـر، اللحظـة التـي تبيضُّ فيهـا وجـوه أهـل الفضيلـة، وتسـودُّ فيهـا وجـوه أهـل الرذيلـة، كانـت هـذه اللحظـة ثقيلـة علـى لـوط عليـه السـلام، عندمـا جـاءه الأضيـاف مـن الملائكـة علـى هيئـة بشـر، وجوههـم تتـلألأ جمـالًا ونضـارةً، فقـال لـوط: «إنكـم قـوم منكـرون»، لا يعرفهـم، ولا يـدري لمـاذا حلّـوا عليـه ضيوفًـا.

فـي هـذه اللحظـات العصيبـة، وصـل خبـر ضيـوف لـوط إلـى قومـه، و «وجـاء أهـل المدينـة يستبشـرون»، يبشّـر بعضهـم بعضًـا بأضيـاف لـوط، ويحـرض بعضهـم بعضًـا علـى فعـل فاحشـتهم المخزيـة مـع هـؤلاء الضيـوف، فسـارعوا إلـى بيـت لـوط تقودهـم شـهواتهم البهيمية وفطرهـم المنتكسـة، وراودوه عـن ضيوفـه، فنصحهـم نبـي الله تعالـى: «إن هـؤلاء ضيفـي فـلا تفضحـون» «واتقـوا الله ولا تخـزون»، ذكّرهـم بـالله عـز وجـل وتقـواه، وحـاول اسـتثارة النخـوة فـي نفوسـهم، ولكـن لا

حياة لمن تنادي، لقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم تقوى الله تعالى، وأفقدتهم سكرة الشهوة المحرّمة عقولهم، وشلّت تفكيرهم، ووأدت قيم النخوة والشرف والستر والغيرة في نفوسهم، فلم تجد النصائح محلًا في قلوبهم الغافلة.

سكرة الشهوة المحرّمة تعمي البصر عن رؤية قبح الفواحش، والبصيرة عن إدراك عاقبة مخالفة الغريزة وانتكاس الفطرة، فيُقدم الإنسان تحت تأثيرها على اقتراف الذنوب، ومواقعة الفواحش، ومخالفة الفطرة السليمة، حتى يسقط في وحل الفواحش البهيمية، متخليًا عن عقله الذي كرّمه الله تعالى به، وفطرته السليمة التي تميّزه عن غيره من المخلوقات، ولذلك كان الالتزام بضوابط الدين، والامتثال لأوامر الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، خيرُ ما يحفظ الإنسان من الانجراف مع تيار الشهوات العارم وخاصة في هذا الوقت.

أليس الصبح بقريب:

الغريزة البهيمية تُحْكِمُ سيطرتها على قوم لوط، وتقودهم إلى التهلكة والخزي في الدنيا، والخسران المبين في الآخرة، فلم يستمعوا إلى صوت الوعظ الذي يدلهم على طريق النجاة، ولم تلجم شهواتهم بقية من عقل أو رُشد، بل اتجهوا نحو حتفهم مسرعين، وهكذا أتى الوصف القرآني لحالهم: «وجاءه قومه يهرعون إليه»، يتسابقون إلى فعل الفاحشة، وهنا ازداد شعور نبي الله لوط بالضيق، فقومه الذين أرسله الله تعالى إليهم لم

يستجيبوا لدعوته، ولم يتركوا فاحشتهم الفاضحة، ومن جهة أخرى أصبح ضيوفه عرضة للإيذاء من هؤلاء القوم.

في هذه اللحظات الحرجة، أتت البشارة إلى لوط من الملائكة: «إنا رسل ربك لن يصلوا إليك»، وجاء الأمر الربّاني بالخروج بأهله من المدينة، إلا امرأته التي كانت عونًا لقومها على فعل الفاحشة، فستدخل في زمرة المُعَذَّبين الهالكين، فأوامر الله تعالى لا تحابي أحدًا مهما كان قربه من أوليائه، فخرج لوط بسلام، ونزل العقاب بقومه صباحًا، فساء صباح المنذَرين، وكان العقاب من جنس عملهم: «فجعلنا عاليها سافلها»، فكما قلبوا الفطرة، وانتكست شهواتهم، قلب الله تعالى عاليها سافلها، «وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود»، لتنتهي حكاية قوم اتبعوا شهواتهم، وابتدعوا فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

وفي ظل دعوات الشذوذ التي تتصاعد اليوم، ومطالبات المنظمات العالمية بإقرار ما يسمى بحقوق الشواذ ومنتكسي الفطرة، حَرِيٌّ بنا أن نستخلص العبر والعظات من قصة قوم لوط الذين ألقت بهم غريزتهم البهيمية إلى التهلكة، وكيف اتخذهم كل من جاء بعدهم من المفسدين أئمة في الرذيلة، ليحملوا وزر فاحشتهم، وأوزار كل من انتكست فطرته، وفعل فعلهم من بعدهم، فهؤلاء ليسوا بمنأى عن العقاب، واستحقاق العذاب كما حصل مع قوم لوط من قبلهم، فالله تبارك وتعالى يقول في ختام قصة لوط في القرآن الكريم: «وما هي من الظالمين ببعيد»، في إشارة إلى أن مصير قوم لوط سينتهي إليه كل من اقتدى بفعلهم المخزي القبيح.

قصة شعيب عليه السلام

سورة هود من الآية: ((84 - 95))

خطورة الفساد المالي:

أرسل الله تبارك وتعالى عبده شعيبًا إلى قوم مدين، فدعاهم بدعوة الأنبياء إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك، وكان أهل مدين غارقين في الفساد المالي بمختلف أنواعه، ولذلك ركّزت رسالة نبي الله شعيب عليه السلام لهم بعد الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وتقواه على تحريم المعاملات المالية الفاسدة التي كانت رائجة بينهم، فقال لهم: «ولا تنقصوا المكيال والميزان»، «أوفوا المكيال والميزان بالقسط»، «ولا تبخسوا الناس أشياءهم»، فكانت رسالته واضحة، ودعوته صريحة، بالكفّ عن ممارسة المعاملات المالية المشبوهة.

غلب القوم على معاملاتهم الغش، وأكل أموال الناس بالباطل، والسرقة والخداع في عمليات البيع والشراء، وهذه والله آفات ما استشرت في مجتمع من المجتمعات حتى أُصيب بالأمراض الاجتماعية التي تهدد كيانه، وتدفعه إلى التمزق والتشرذم، فانتشار المعاملات المالية المشبوهة يخلق الطبقية بين أفراد المجتمع، ويولد الحقد والحسد والبغضاء بينهم، ويؤدي إلى ضياع الحقوق، واختلال ميزان العدالة، ويجعل الغني الذي كوَّنَ ثروته بطرق غير مشروعة يفترس الفقير الذي لا يجد قوت يومه، فيتحول المجتمع إلى مجتمع غابٍ، يأكل فيه الأقوياء حقوق الضعفاء.

رسالة الإسلام التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، هي رسالة عدل وحق، تقوم على إصلاح العقيدة والسلوك، فتحفظ المجتمعات من شبهات تفسد الاعتقاد الصحيح، وتصونها من شهوات تقودها إلى ممارسة الفساد الأخلاقي والمالي، فتدمر سلوكها وأخلاقها، لأن المعاملات المالية المحرّمة من سرقة وغش واحتكار وربا وغيرها، تنخر في جسد المجتمع حتى يصاب بالتآكل والانهيار، والالتزام بتعاليم الدين الحنيف هو السد المنيع، والحصن الحصين، الذي يحفظ المجتمعات من هذا الفساد.

لا تبخسوا الناس أشياءهم:

قَدَّمَ شعيب عليه السلام باقةً من النصائح الغالية لقومه، بدأها بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل، ثم انتقل إلى بيان مظاهر الفساد التي طغت على معاملاتهم المالية، ومن نصائحه عليه السلام لهم: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم»، أي لا تنتقصوا من حقوق الناس باستخدام الغش في المكيال والميزان، بل رُدُّوا الأمانات إلى أهلها، وأعطوا كل ذي حق حقه، فالتّعدي على حقوق الناس من كبائر الذنوب.

إن حقوق العباد مبنية على المشاحنة، وحقوق الله تعالى مبنية على المسامحة فيما عدا الإشراك به سبحانه، فليحذر المسلم من انتقاص حقوق العباد، وليعلم أن عاقبة هذا الفعل عظيمة، وسيحاسب من يتجرأ على هذه الحقوق حسابًا عسيرًا، وليراجع كلٌ منا نفسه، ويَجْرِدُ معاملاته مع الناس جردًا دقيقًا،

فإنْ وجد حقًا من حقوق الناس لم يؤده إليهم، أو تعدّى عليه، فعليه المسارعة إلى تأديته، ورَدٍّ ما انتقصه من هذه الحقوق، فكم من عامل وأجير مستضعف يئن ويعاني بسبب منعه من حقه وأجره ولا نسمع أنينه، وكم من تاجر اتَّبَعَ طرقًا ملتويةً تساعده في زيادة أرباحه، وكم من أرصدة تضخمت على حساب حقوق العباد المنتقصة؟

وبخس الناس أشياءهم لا يقتصر على المعاملات المالية فقط، بل يتعدّى ذلك إلى الحقوق المعنوية، فمنع المستحق من تولّي المكانة أو الوظيفة أو المسؤولية التي يستحقها من بخس الحقوق، ونَسْبِ عمل الإنسان إلى غيره من بخس الحقوق، وكتمان حسنات العباد وإنجازاتهم من بخس الحقوق، وعدم توجيه كلمة الشكر لمَن يستحقها على ما قام به من عمل من بخس الحقوق، وتقديم المُقرَّبين على أصحاب الكفاءة من بخس الحقوق، فإذا تأمّلنا الآية الكريمة، وتدبرنا معانيها العظيمة، فإنَّ نظرتنا إلى حقوق العباد التي نهانا الله تعالى عن التعدّي عليها ستكون أكثر شمولاً.

بقية الله خيرٌ لكم:

نبي الله شعيب عليه السلام يوجه الموعظة تِلْوَ الأخرى إلى قومه، ومن هذه المواعظ التي تستحق أن تُكتب بماء الذهب، ويعلقها كل تاجر في مَتْجَرِهِ، وكل صاحب مسؤولية في مكتبه أو مَقَرِّ عمله: «بقية الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين»، ما تركه الله تعالى لكم من حلالٍ يغنيكم عن الحرام، وما أباحه العزيز الحكيم لكم

من معاملات وبيوع، خيرٌ لكم من المعاملات المشبوهة، والبيوع المحرَّمة، وما تَبَقّى لكم من رزقٍ حلالٍ وإنْ كان قليلًا، خيرٌ لكم من ثروة طائلة جُمِعَتْ عن طريق الغش والخداع والسرقة والربا.

«خيرٌ لكم» أي أكثر بركةً ونماءً، وأفضل عاقبةً ومآلًا، فالإنسان الذي يتجنَّب الحرام في كسبه، ويتحرّى الحلال، ويتورع عن المشتبهات، يجد الأثر في استجابة دعوته، وعافية بدنه، وصلاح ذريته، وراحة باله، وطمأنينة نفسه، فكل هذه الأمور وغيرها، من البقية الطيبة، والرزق المبارك، الذي يُنعم الله تعالى به على عباده في حياتهم الدنيا، وما عنده سبحانه وتعالى خير وأبقى.

يتعرَّض الإنسان لكثير من المغريات في الدنيا، منها ما يأتي على هيئة ثروة تَقْلِبُ حياته رأسًا على عقب، ومنها ما يأتي على هيئة منصب أو وظيفة تنقله إلى مَصافِ الكبار من الملأ، فإن كانت هذه الأمور نتيجةً لمخالفة أوامر الله تعالى، واتباع الطرق المشبوهة، والتعدّي على حقوق العباد، فإنَّ عاقبتها الخزي والعار في الدنيا، والخسران المبين يوم القيامة، وهنيئًا لمَن جعل القاعدة النبوية الشريفة: (من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه) نهجًا يسير عليه في حياته.

أهمية القدوة:

حَمَلَ شُعيب عليه السلام لواء الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإصلاح المجتمع، والتحذير من الفساد المستشري بين أفراده، وعَلِمَ عليه السلام أن التربية بالقدوة هي أنجعُ وسيلة للإصلاح

والدعـوة والتربيـة، فقـال: «ومـا أريـد أن أخالفكـم إلـى مـا أنهاكـم عنـه»، فأخضـع نفسـه أولًا للامتثـال إلـى كل مـا كان يدعـو النـاس إليه، فلسـان الحـال أبلـغ أثـرًا مـن المقـال، فنبـذ شـعيب عليـه السـلام الشـرك، وكانـت أقوالـه وأفعالـه مدرسـةً فـي التوحيـد الخالـص لله تعالـى، وكانـت أخلاقـه ومعاملاتـه مثـالًا يُحتـذى بـه فـي الأمانـة والتَّعَفُّـفِ عـن المـال الحـرام، والبُعـد عـن مواطـن الشـبهات.

الداعيـة المصلـح والناصـح الأميـن، الـذي يأمـر بالمعـروف، وينهـى عـن المنكـر، ويدعـو إلـى مـكارم الأخـلاق، والقيـم الفاضلـة، عليـه أن يكـون سـفيرًا لدعوتـه، ونموذجًـا واقعيًـا لِمـا يدعـو إليـه، يـراه النـاس بأعينهـم، فيتأثـرون بـه، ويقتـدون بفعلـه، وقـد كان نبينـا صلـى الله عليـه وسـلم قـدوةً فـي أقوالـه وأفعالـه لأمتـه، فلـم يكتـفِ عليـه الصـلاة والسـلام بتعليـم الصحابـة القـرآن وأحكامـه نظريـا فقـط، بـل كان قرآنًـا يمشـي علـى الأرض، يلمسـون فـي أخلاقـه قيـم القـرآن، ويـرون فـي أفعالـه أحـكام القـرآن، ويسـمعون مـن أقوالـه آداب القـرآن، فنجـح صلـى الله عليـه وسـلم فـي الدعـوة والتأثيـر، وكسـب المحبـة والتقديـر، حتـى مـن خصومـه الذيـن ناصبـوه العـداء.

يتأثـر المنصـوح والمدعـو بأفعـال وأخـلاق وأقـوال الناصـح سـلبًا أو إيجابًـا، فَسِـرُّ نجـاح الدعـوات بعـد الإخـلاص لله تعالـى، مطابقـة فعـل الداعيـة لقولـه، فكـم مـن نصيحـةٍ ذهبـت أدراج الريـاح بسـبب حـال الناصـح المخالـف لقولـه، وكـم مـن إنسـانٍ ضـلَّ الطريـق بسـبب تسـاقط القـدوات أمـام عينيـه، والله تبـارك وتعالـى يُحَـذِّرُ عبـاده المؤمنيـن مـن هـذا السـلوك: «يـا أيهـا الذيـن آمنـوا لـم تقولـون مـا لا تفعلـون كَبُـرَ مقتًـا عنـد الله أن تقولـوا مـا لا تفعلـون»، فمـا أجمـل

النصيحة عندما يسبقها التطبيق العملي من صاحبها، وما أروع التوجيهات عندما تكون واقعًا عمليًا يعيشه ملقيها.

الوِسْعُ الصادق:

الهدف من دعوة الأنبياء عليهم السلام ومَن سار على دربهم من المصلحين هو تحقيق الإصلاح في مجتمعاتهم، وهذا ما بيّنه شعيب عليه السلام لقومه فقال: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت»، الإصلاح الذي يقضي على مظاهر الفساد الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، فيُخرج المجتمعات من ظلام الشرك والبدعة، ويطهّرها من رجس الفواحش والمعاصي، وينتشلها من وحل المعاملات المشبوهة كالسرقة والربا والغش.

هذه المهمة العظيمة للأنبياء قَيّدها شعيب عليه السلام بضابط (الاستطاعة)، فالله سبحانه وتعالى جعل التكاليف الشرعية لا تخرج عن نطاق الاستطاعة البشرية، فقال سبحانه: «لا يكلف الله نفسًا إلا وُسعها»، «ولا نكلف نفسًا إلا وسعها»، وهذا هو الوسع الصادق القادر على تحمّل التكاليف الشرعية، وأما ما يختلقه الإنسان من أعذار واهيةٍ تبرر له تخلفه عن أداء التكاليف الشرعية بحجة عدم الاستطاعة، فهذا وسع قد رسمته الأهواء والأوهام، ولا يصح التذرُّع به.

يُعذر الإنسان إذا بذل ما في وسعه، فالمصلح يجتهد ويبذل قدر استطاعته محاولاً إصلاح مجتمعه، والأخذ بيد قومه إلى بَرِّ الأمان، ولكن لا يُحاسب على النتائج، فعدم الاستجابة لا تستوجب

الحـزن، ولـوم النفـس، فـالله تعالـى يُبَيِّـنُ دور المصلحيـن: «فذكِّـر إنمـا أنـت مذكـر لست عليهـم بمسيطر»، «فـلا تذهـب نفسـك عليهـم حسـرات»، «ليس عليك هداهـم»، «فلعلك باخـع نفسك علـى آثارهـم إن لـم يؤمنـوا بهـذا الحديـث أسـفا»، المتأمـل لهـذه الآيـات الكريمـة يفهـم طبيعـة الـدور الـذي يقـوم بـه صاحـب الرسـالة فـي هـذه الحيـاة، وهـو النصـح والتذكيـر والدعـوة، وأمـا النتائـج والآثـار فليـس مسـؤولاً عنهـا، ولا ينبغـي أن يَضيـقَ صـدره، ويوجـه أصابـع اللـوم إلـى نفسـه، إذا لـم تتحقَّـق.

إياك نعبد وإياك نستعين:

يسـتمر نبـي الله شـعيب عليـه السـلام فـي بيـان معالـم الخطـاب الإصلاحـي الـذي يسترشـد بـه المصلحـون فـي كل زمـان، فبعـد النصـح والوعـظ، يسـلط الضـوء علـى مكامـن الخلـل، ويكشـف بـؤر الفسـاد، ويُبَيِّـنُ الغايـة مـن دعوتـه (الإصـلاح) التـي يسـعى لبلوغهـا قـدر اسـتطاعته، ويعتـرف لهـم بمحدوديـة قدرتـه البشـرية، فيتبـرأ مـن حولـه وقوتـه، ويُفَـوِّضُ أمـره إلـى جبّـار السـماوات والأرض، الرحمـن الرحيـم، الـذي بيـده ملكـوت كل شـيء، ويقـول لقومـه بلسـان المتـوكِّل علـى ربـه، الواثـق بتأييـده: «ومـا توفيقـي إلا بـالله»، فالأمـر كلـه بيـد الله سبحانه وتعالـى، فالتوفيـق والسـداد، والتأييـد والفـلاح، مـن الله العلـي القديـر.

ويكمـل شـعيب عليـه السـلام شـرح أعمـال القلـوب، فيقـول: «ومـا توفيقـي إلا بـالله عليـه توكلـت وإليـه أنيـب»، ويبيـن لهـم الأمـور التـي

تستقيم بها أحوال العبد، فالتَّوَكُّلُ الصادق على الله تعالى يجعل العبد في حفظ الله تعالى ورعايته، ويكفيه كل سوء يتعرض له، فمن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه وناصره، والاستعانة بالله عز وجل تُخَلِّصُ العبد من أسباب الضعف والحزن والوهن، وكيف يحزن أو يخاف أو يضعف وهو في كفاية القوي الجبّار، والإنابة هي أداء العبادات المأمور بها خالصة لوجه الله تعالى، والتقرُّب إليه بفعل الخيرات.

وفي كل صلاة يقرأ العبد سورة الفاتحة، ويردد: «إياك نعبد وإياك نستعين»، فيرتبط القلب بخالقه سبحانه وتعالى، ويَصْرِفُ العبادة والإنابة لله سبحانه وحده لا شريك له، ويتخلَّص من الشرك ومظاهره العلنية والخفية، ويقطع الأمل والرجاء بالخَلْقِ، ويستعين بالخالق سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فيتوكل عليه، ويُفَوِّض إليه أمره، فلا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، وبذلك يُحَلِّق العبد المؤمن بجناحي الاستعانة والعبادة مترفعًا عن شبهات الدنيا وشهواتها، سائلًا الله تعالى أن تكون آخر محطة في مسيرته جنة عرضها السماوات والأرض يدخلها بفضل الله تعالى ورحمته.

قصة أصحاب الجنة

سورة القلم من الآية: ((17 - 33))

خُلُقٌ تدعو الملائكة على صاحبه:

ذَكَرَ الله سبحانه وتعالى خَبَرَ أصحاب الجنة في سورة القلم في القرآن الكريم، وهم قومٌ يملكون بستانًا مليئًا بالأشجار المُثْمِرَة، فتشاوروا وعقدوا العزم على أن يتجهوا في الصباح الباكر إلى جنَّتهم، ليَجْنوا ثمارها: «إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين»، دون أن يقولوا إن شاء الله: «ولا يستثنون»، وقرَّروا حرمان الفقراء والمحتاجين من ثمار جنتهم، والاستئثار بها لأنفسهم: «لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين»، هذه النيَّة السيئة التي بيّتوها، كانت سببًا في استحقاقهم العذاب، وحرمانهم من خيرات جنتهم، فانتهى بهم الحال إلى التلاوم والندم.

الشُّحُ خُلُقٌ ذميم، انتزع الرحمة من قلوب أصحاب الجنة، ودفعهم إلى حرمان الفقراء والمحتاجين من خيراتها التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وهذا المنع والإمساك عن أداء حق الله تعالى وحق العباد عرّضهم لغضب الله عز وجل، والإنسان الشحيح الذي يمتنع عن الإنفاق في سبيل الله تعالى تدعو عليه الملائكة صباح مساء كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيَّنَ أن الملائكة تدعو بهذا الدعاء: (اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا).

ولو لم يكن في منع الخير من الوصول إلى المحتاجين إثمًا إلا أنه صفة من صفات أهل النار، لكان ذلك سببًا كافيًا في الحذر

منه وتجنُّبه، فالله تعالى ذَكَرَ في كتابه الكريم أن منع الخير من صفات أهل النار: «ألقيا في جهنم كل كفار عنيد منّاع للخير معتد مريب»، ويكفيه قبحًا أنه قُرِنَ بالتكذيب بالله تعالى واليوم الآخر: «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضُّ على طعام المسكين»، فمنع الخير، وقطع المعروف، وحرمان المحتاج والمسكين من حقه الذي شرعه الله تعالى له ذنب عظيم.

والمؤمن الفَطِنُ يحرص على أن يطهر نفسه من هذه الصفات السيئة، ويعودها على المسارعة في الخيرات، ومدِّ يد العون للمحتاج والفقير والمسكين، ويجعل من ماله وسيلةً لتفريج الكربات، ورسم الابتسامة على وجوه المحرومين، فيبارك الله تعالى له في ماله، ويجزيه الجزاء الأوفى على بذله وعطائه.

كذلك العذاب:

عقد أصحاب الجنة النية على جَنْيِ ثمار البستان صباحًا، وحرمان الفقراء والمحتاجين من هذه الخيرات، فسبق الأمرُ الربّانيُ قرارَ أصحاب الجنة، ونزل العقاب بهم: «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون»، فأباد جنتهم، وأتلف محصولها، وأفسد ما فيها من أشجار وثمار.

في الصباح الباكر، ارتدى القوم ثياب القسوة، وانطلقوا إلى تنفيذ مؤامرتهم بنفوس تملؤها الثقة بالقدرة على منع حق الله من الوصول إلى مستحقيه، فتفاجؤوا من مشهد جنتهم ذات الأشجار الزاهية، والثمار اليانعة، وقد أصبحت كالليل المظلم، فتلاوموا

بينهم، واعترفوا بالخطأ الفادح، وعقدوا جلسة محاسبة لأنفسهم اختتمت بالندم، وإعلان التوبة إلى الله عزَّ وجل.

الخراب الذي حلَّ بالبستان، كان عقابًا على نيَّة السوء التي بيّتها أصحابها، ورغبتهم في تجفيف منابع الخير، وإصرارهم على إلحاق الضرر بالمحتاجين والفقراء الذين كانوا يستفيدون من ثمار هذه الجنة، فالله تبارك وتعالى يضاعف أجور القائمين على المساكين والأرامل والأيتام، الذين كانوا كالسحابة المباركة التي تُمطر خيرًا وسعادةً على المحتاجين، ويعاقب سبحانه من جمعوا الأموال، وكنزوا الثروات، ومنعوا حق الله تعالى، وتسبَّبوا في معاناة الفقر والبؤس لعباده، والإنسان إذا أنفقَ من ماله فإنه يزيد وينمو، وإذا بخل وامتنع عن الإنفاق فإنه سيعاقب عقابًا يناسب فعله وجرمه.

قَطْعُ طرق الخير، ومَنْعُ المعروف عن عباد الله تعالى، عاقبته وخيمة، فالمال الذي لم يسبق جزء منه صاحبه إلى الجنة، ولم يكن للفقراء والمحتاجين منه نصيبًا، سيكون وبالًا عليه، والثروة التي تضخمت على حساب آلام الفقراء والمساكين، ستصاب بطائف يجعلها كالصريم، وتتنوع أشكال وهيئات هذا الطائف، فقد يكون الطائف خسارةً يُمْنى بها صاحب المال فتتبدَّد ثروته، أو حريقًا يلتهم ممتلكاته فلا يَذَرُ منها شيئًا، أو مرضًا يذهب بعافية مانع الخير فلا يستمتع بأمواله، أو غيرها من الأمور التي يعاقب الله تبارك وتعالى بها أصحاب الثروات الذين أعمى الشُّحُّ قلوبهم ففقدوا الإحساس بمعاناة المحتاجين، لذلك على الإنسان أن يكون حذرًا، وينفق من مال الله تعالى الذي آتاه في أوجه البِرّ،

ليتجنب العقاب الربّاني في الدنيا: «كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون».

الله يعلم ما في قلوبكم:

المُخَطَّطُ المُحكَمُ الذي رسمه أصحاب الجنة لجَنْيِ ثمار البستان، ومَنْعِ الفقراء من الحصول عليها، والتنادي إلى تنفيذه في الصباح الباكر، كان مخططًا على درجة عالية من السِرّية، لا يعلم به أحد، حتى جاء الوصف القرآني لحالهم وهم في طريقهم إلى تنفيذه: «فانطلقوا وهم يتخافتون»، يتكلمون بصوت منخفض لكي لا يستمع إليهم أحد وينكشف المخطط، ولكنهم غفلوا عن حقيقة مهمة، وهي أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقهم قد عَلِمَ بنيتهم السيئة، واطَّلع على ما في قلوبهم، وكشف ما أخفوه عن الناس من رغبةٍ عارمةٍ في منع المعروف، وقطع سبل الخير، فبادرهم بعقابٍ في الليل قبل أن يُنَفِّذوا ما اتفقوا عليه، فسقط المخطط، وباءت محاولات الاستئثار بالثمار والثروة بالفشل الذريع.

نيَّة السوء، والتواصي بمنع الخير، والتعاون على الإثم والعدوان، من الأمور التي توجب العقاب الربّاني لأصحابها، وهذا ما حصل مع أصحاب الجنة عندما ظنوا أن إخفاءهم لمخططهم القاضي بمنع حق الله تعالى في أموالهم سيُكتب له النجاح، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأحبط مخطط السوء والشر الذي اتفقوا عليه، وفاجأهم بعقاب لم يحسبوا حسابه، فالله تعالى يعلم السر وأخفى، ومُطَّلِع سبحانه على ما في القلوب، وما يكون من نجوى

إلا يعلمها، فإذا جاء الأمر الإلهي، فإن المخططات الإجرامية التي يعمل عليها أصحابها ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، تصبح هباءً منثورًا، وتكون كالسَّراب الذي لا ينفع القائمين عليها.

أَصْلِحْ نيتك، وراقِبْ الله سبحانه وتعالى في جميع أعمالك، فإنك مُحاسَب عليها، فنيَّة السوء تجلب العقاب، ألم تستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يُخبر فيه أن القاتل والمقتول مصيرهما النار، لأن نيَّة القتل كان حاضرةً عند الاثنين، ولا تظن أن إخفاء السيئة عن الناس سينجيك من العذاب، بل استحضر مراقبة الله عز وجل، واعلم أنه مُطَّلِعٌ على أعمالك وأقوالك، وسرَّك وعلانيتك، فمراقبة الله تعالى في السر والعلن من صفات المحسنين.

تعجيل العقوبة رحمة:

العقوبة التي حوّلتْ الجنة العامرة بالأشجار المورقة والثمار اليانعة خرابًا وحطامًا، كانت كالصدمة التي أخرجتْ أصحاب الجنة من غيبوبة الغفلة، وسَكْرَةِ الطمع، فأفاقوا على خراب جنتهم، وعرفوا حقيقة ظلمهم، وعاقبة طغيانهم، فندموا ندمًا شديدًا، وتلاوموا بينهم، فأرشدهم أوسطهم إلى الحل، وذَكَّرهم بنصيحته لهم، فقال: «ألم أقل لكم لولا تسبحون»، فاستدركوا واعترفوا، وندموا وتابوا، وأعلنوها بكل صراحة ووضوح وخضوع لجبّار السماوات والأرض: «سبحان ربنا إنا كنا ظالمين»، فأصبحت العقوبة مُنبهًا يوقظ الضمير، ويُنهي فترة الغفلة، ويعيد العباد إلى ربهم نادمين تائبين خاضعين معترفين بذنوبهم.

مـن رَحِـمِ المِحَـنِ تُولـد المِنَـحُ، ومـن ظـلام المصائـب يبـزغ نـور التوبـة، فكـم مـن مصيبـة وجائحـة أصابـت الإنسـان كفقـدِ عزيـز، أو مـرض مفاجـئ، أو خسـارة تجـارة، أو تعثـر علاقـة، كانـت سـببًا فـي توبتـه وندمـه وعودتـه إلـى الطريـق المسـتقيم، فـدوام النعـم قـد يشـعر بعـض العصـاة بطـول الأمـل، ويضـرب بجـدار مـن الغفلـة علـى قلوبهـم، فيمنعهـا مـن الخشـوع للآيـات والمواعـظ التـي تقشـعر منهـا جلـود المؤمنيـن، وتليـن قلوبهـم، وتطمئـن نفوسـهم.

المصائـب والعقوبـات ليسـت شـرًا محضًـا، بـل تحمـل فـي طيّاتهـا الخيـر الكثيـر، فالعاقـل لا يُعِـدُّ المصائـب ضربـة قاضيـة تنهـي أملـه فـي التوبـة، وتقطـع صلتـه بالأمـل والرجـاء، وتغلـق ملـف حياتـه، بـل هـي محطـة يتوقـف عندهـا المُصـاب والمُبتلـى، فيراجـع شـريط أعمالـه، ويقـف علـى أخطائـه وذنوبـه، ويسـتغفر ربـه تبـارك وتعالـى، ويـندم علـى تفريطـه وإسـرافه، ويعـزم علـى قطـع علاقتـه بماضيـه، ويفتـح صفحـة جديـدة عنوانهـا حُسْـن الظـن بـالله سـبحانه وتعالـى، ويُعمِّرهـا بالأعمـال الصالحـة التـي يجعلهـا الله عـزَّ وجـل سـببًا فـي محـو سـيئاته السـابقة، فيُقْبِـل علـى الله سـبحانه وتعالـى مغفـور الذنـب.

قصة أصحاب الأخدود

سورة البروج من الآية: ((3 - 11))

قُتِلَ أصحاب الأخدود:

سورة البروج سورة مكيَّة، أنزلها الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في وقت كان مشركو مكة يسومون المستضعفين من المؤمنين سوء العذاب في محاولات بائسة ويائسة لصدهم عن سبيل الله تعالى، وَرَدِّهم عن دينهم الذي خالطت حلاوة الإيمان به بشاشة قلوبهم، وجاء نبأ أصحاب الأخدود في هذه السورة الكريمة، وهم القوم الذين اتّخذوا التعذيب نهجًا لفتنة المؤمنين، ومحاولة ردِّهم عن دينهم الحق، وفي قصتهم عبرة وعظة للكوكبة المباركة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين صمدوا في وجه آلة البطش القُرشية، ولم يتزعزعوا عن دينهم ومبادئهم، وما زادهم التعذيب إلا إصرارًا على البراءة من الشرك وأهله، وما زادتهم هذه الآيات الكريمة إلا ثباتًا وصمودًا.

أراد هؤلاء القوم فتنة عباد الله تعالى الذين وحَّدوا ربَّهم، فاتّجهوا إلى إرهابهم وتخويفهم من خلال حفر الأخاديد (الحفر) العميقة، وإشعال النار فيها، وجعل المؤمنين يمرّون بها لتخويفهم وبث الرعب في قلوبهم، والوصول إلى هدفهم الخبيث بردهم عن طريق الحق الذي ارتضوه منهجًا لحياتهم، ومَن يرفض منهم الانصياع إلى هذه الرغبة الضّالة، يُلقى في الأخدود، ويُحرق بالنار على مرأى من أهله، والقوم يشهدون هذه الجريمة البشعة

«إذ هـم عليهـا قعـود وهـم علـى مـا يفعلـون بالمؤمنيـن شـهود»، وقـد عاقـب الله سـبحانه وتعالـى القائميـن علـى هـذه الجريمـة باللعـن (قُتِلَ) أصحـاب الأخـدود، أي لُعنـوا وطُـردوا مـن رحمـة الله سـبحانه وتعالـى، ثـم توعّدهـم سـبحانه بـأن يكـون عقابهـم فـي الآخـرة مـن جنـس العـذاب الـذي أذاقـوه للمؤمنيـن فـي الدنيـا: «إن الذيـن فتنـوا المؤمنيـن والمؤمنـات ثـم لـم يتوبـوا فلهـم عـذاب جهنـم ولهـم عـذاب الحريـق»، فكمـا أحرقـوا عبـاد الله تعالـى بنـار الدنيـا، سـتُكوى جلودهـم بنـار الآخـرة، وشـتان بيـن النّاريْـن.

أصحـاب الأخـدود تجدهـم فـي كل زمـان ومـكان، زمـرة يزعجهـا عـودة النـاس إلـى ربهـم، وتمسـكهم بعقيدتهـم، فيسـعون لصَدِّهـم عـن دينهـم، وذلـك بتعريضهـم لشـتّى أنـواع العـذاب البدنـي والنفسـي، دون أن تردعهـم إنسـانية، أو تمنعهـم مـروءة، فقـد انتُزِعـت الرحمـة مـن قلوبهـم القاسـية، وطغتْ علـى تصرفاتهـم الوحشـية التـي تنتهـك كرامـة الإنسـان، ولا تعبـأ بمشـاعره وأحاسيسـه.

التهمة المُشرِفة:

أصحـاب الأخـدود فتنـوا المؤمنيـن والمؤمنـات، واسـتخدموا أبشـع أنـواع التعذيـب معهـم ليصدوهـم عـن دينهـم، ولكـن مـا هـي التهمـة التـي بسـببها عَذّبـوا المؤمنيـن، وألقوهـم فـي الأخاديـد، وأحرقـوا أجسـادهم بالنـار؟ التهمـة هـي بـكل وضـوح: «ومـا نقمـوا منهـم إلا أن يؤمنـوا بـالله العزيـز الحميـد»، نعـم هـذه التهمـة التـي أزعجـت القـوم، وأشـعلت نـار الحقـد والانتقـام فـي صدورهـم، الإيمـان بـالله

سبحانه العزيز الحميد يعتبرها المجرمون تهمةً يستحق أصحابها عقاب الحرق بالنار! الضلال أعمى قلوبهم، والحماقة أسكرت عقولهم، والشيطان استحوذ عليهم، فأصبحوا يلاحِقون الناس بتهمة الإيمان!

الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والثبات على دينه، والموت على ذلك، من أغلى الأمنيات التي يسأل المؤمنون ربهم تبارك وتعالى أن يحققها لهم، بينما يعتبرها المجرمون من أهل الزيغ والضلال تهمة يستحق أصحابها العقاب والتعذيب، لأنهم اعتادوا العيش في ظلام الشرك والكفر والزيغ، وبناء قوة الباطل والإرهاب والتعدي على حقوق الآخرين، ولذلك يخشون من أنوار الإيمان التي تفسد البيئة الظلامية التي يقتاتون عليها، وتهدد مصالحهم القائمة على الأهواء والشهوات والشبهات، ويهابون قوة الحق التي تدمغ باطلهم الهَش، فتزهقه وترده مدحورًا.

يتعرض العلماء والمصلحون لحملة تشويه منظمة، وتحاك ضدهم المؤامرات، وتُلفق لهم التهم الباطلة، فيتعرضون للأذى بناءً على تلك التهم الملفقة، والحقيقة التي لا يمكن حجبها عن الناس، أن التهمة الحقيقية التي يتعرض بسببها العلماء والدعاة والمصلحون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر لهذا التنكيل والتعذيب من أعدائهم، هي إيمانهم بالله سبحانه وتعالى، وحرصهم على مرضاته، ورغبتهم في إصلاح مجتمعاتهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، ولذلك يُلاحقون ويتعرضون للتضييق من أهل الباطل.

الفوز الكبير:

وَصْفُ الفوز الكبير لم يَرِدْ في القرآن الكريم إلا مرة واحدة فقط، في ختام الحديث عن قصة أصحاب الأخدود، وبيان الأجر العظيم الذي سيناله المؤمنون، فالله تبارك وتعالى قال: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير». إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى والثبات عليه –على الرغم من حملة التعذيب والتنكيل والترهيب والصد- هي فوز كبير للإنسان المؤمن، وحتى وإن قتله أعداؤه، أو ألحقوا به الأذى في الحياة الدنيا.

لم يشهد أصحاب الأخدود النصر على أعدائهم في الحياة الدنيا، بل تعرَّضوا للتعذيب والحرق والأذى والقتل، ولكنهم فازوا فوزًا كبيرًا، وانتصروا نصرًا عظيمًا مؤزرًا، فالنصر لا يقتصر على إلحاق الهزيمة المادية بالعدو، بل له أشكال وهيئات متعددة، فنعمة الإيمان بالله سبحانه وتعالى نصر، والثبات على هذا الإيمان نصر، والموت على التوحيد والإيمان نصر، وكشْفُ باطل المجرمين أمام الناس نصر، والصمود في وجه آلة التعذيب والقتل نصر، هذا الفهم العميق لمعنى النصر دلّنا عليه الفوز الكبير الذي ناله المؤمنون في قصة أصحاب الأخدود.

المسلمون في هذا الزمان قد يصيبهم الإحباط، ويتسلل اليأس إلى نفوسهم، إذا شاهدوا تكالب الأعداء عليهم، وتراجع أمتهم التي كانت تتبوأ صدارة الأمم في مختلف المجالات، ولكن سورة البروج تعلمنا أن الفوز الكبير الحقيقي يتحقق بالتمسك

بالعقيدة الصحيحة القائمة على التوحيد، والثبات على ذلك، وعدم التأثر بالحملات المنظمة التي تُشن بين الفترة والأخرى لزعزعة الثوابت، وهز أركان الإيمان الراسخة، وإثارة الشبهات في نفوس المسلمين، ونشر الشهوات المحرمة لتدمير شبابهم، ومقاومة حملات الترهيب والتخويف والتهديد، والصبر والاحتساب والصمود أمام ألوان الأذى المختلفة التي قد يتعرض لها المؤمن بسبب ثباته على دينه الحق، فمَن فعل ذلك فقد فاز فوزًا كبيرًا، وانتصر على أعدائه بإيمانه وثباته، وإن لم يشهد هزيمتهم في ساحات النِّزال.

الفهرس

في قصصهم عبرة

قصص القرآن الكريم كنوزٌ مليئةٌ بالعِبَرِ، والله تبارك وتعالى أرشدنا إلى هذه الحقيقة المهمة فقال: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"، فلا يكاد القارئ يَمُرُّ على قصة من قصص القرآن الكريم إلا ويجد فيها من الدروس والعبر والعظات ما يُثَبِّتُ فؤاده، ويُنير بصيرته، ويزيد إيمانه، ويَشْحَذُ هِمَّتَهُ، ويمنحه جرعةً من الأمل والتفاؤل .

وهذا الكتاب يأخذ القارئ في رحلة تدبرية لمجموعة من قصص القرآن الكريم، نتوقف عند كل قصة من قصص الأمم السابقة التي وردت في كتاب الله تعالى، فنستخلص الدروس، ونستلهم العِبَرَ، ونَتَفَكَّرُ بأحوالهم، لنسير على درب الصالحين منهم، ونتجنب طريق العصاة المعاندين.

في كل قصة لنا وقفات، نسلط الضوء من خلالها على الدروس والعبر والعظات المُسْتَخْلَصَةِ في جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، والسبيل الأمثل للاستفادة منها في واقعنا وحياتنا.







